

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# هداية آيات

د. محمد بن إبراهيم التميمي

② محمد بن ابراهيم الحمد ، ١٤٣٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية / انشاء النشر

الحمد ، محمد بن ابراهيم  
هداية آيات. / محمد بن ابراهيم الحمد .- الرياض ، ١٤٣٠ هـ

١٢٠ ص ؛ ..سم

ردمك: ٦-٣١٤٣-٠٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- الوعظ والارشاد ا.العنوان

١٤٣٠/٥٢٥٢

ديوي ٢١٣

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٥٢٥٢

ردمك: ٦-٣١٤٣-٠٠٠-٦٠٣-٩٧٨

## متابعة " قراءة المختار على جماعة المسجد "

٢	الموضوع	الصفحة	ما تمت قراءته	تاريخ القراءة
١	﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾	٩	√	
٢	﴿ الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ ﴾	١٢		
٣	﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾	١٦		
٤	﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾	٢٠		
٥	﴿ وَيَشْرُ الصَّابِرِينَ ﴾	٢٤		
٦	﴿ فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾	٢٧		
٧	﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ ﴾	٣١		
٨	تأملات قرآنية	٣٥		
٩	﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾	٣٨		
١٠	﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾	٤٢		
١١	﴿ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾	٤٧		
١٢	﴿ أَوْ إِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ ﴾	٥٢		
١٣	﴿ وَصَاحِبِهِمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾	٥٥		
١٤	﴿ هَارُونَ أَخِي ﴾	٥٩		
١٥	﴿ أَوْ تَسْرِجَ بِإِحْسَانٍ ﴾ فَتَلْزَمُهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴿	٦٣		
١٦	﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾	٦٦		
١٧	تفسحوا بفسح الله لكم	٧٠		
١٨	﴿ فَاتَّبِعْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾	٧٣		
١٩	﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾	٧٥		
٢٠	﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾	٧٩		
٢١	﴿ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾	٨١		
٢٢	﴿ أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ ﴾	٨٥		
٢٣	﴿ لِيَخْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾	٨٩		
٢٤	﴿ بِأَعْدَائِنَا أَسْفَارَنَا ﴾	٩٣		
٢٥	﴿ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾	٩٧		
٢٦	﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾	١٠١		
٢٧	﴿ وَالْأَفْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾	١٠٥		
٢٨	﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾	١٠٩		
٢٩	﴿ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾	١١٣		
٣٠	﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾	١١٩		

## محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	❖ محتويات الكتاب
٥	❖ مقدمة الجمعية
٧	❖ مقدمة المؤلف
٩	١- ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾
١٢	٢- ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾
١٦	٣- ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾
٢٠	٤- ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾
٢٤	٥- ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾
٢٧	٦- ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾
٣١	٧- ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾
٣٥	٨- تأملات قرآنية
٣٨	٩- ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾
٤٢	١٠- ﴿مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾
٤٧	١١- ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾
٥٢	١٢- ﴿أَوْ إِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ﴾
٥٥	١٣- ﴿وَصَاحِبِهِمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾
٥٩	١٤- ﴿هَارُونَ أَخِي﴾

الصفحة	الموضوع
٦٣	١٥- ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾
٦٦	١٦- ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهُمْ﴾
٧٠	١٧- تَفْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ
٧٣	١٨- ﴿فَأَنذِرْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾
٧٥	١٩- ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾
٧٩	٢٠- ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾
٨١	٢١- ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾
٨٥	٢٢- ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾
٨٩	٢٣- ﴿لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾
٩٣	٢٤- ﴿بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾
٩٧	٢٥- ﴿يَغْضُوبُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾
١٠١	٢٦- ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾
١٠٥	٢٧- ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾
١٠٩	٢٨- ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾
١١٣	٢٩- ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾
١١٩	٣٠- ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

## مقدمة

## الجمعية العلمية السعودية للقرآن وعلومه

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد.

فإن قراءة كتاب الله، وتدبر معانيه، وتأمل آياته، واستخلاص هداياته؛ من أعظم ما يُطَمِّنُ القلوب، ويشرح الصدور، ويزيل الهموم، ويزيد الإيمان، ويقرب إلى الله -جلّ وعلا-

آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُّ يَزِينُهُنَّ جَلَالُ الْعَتَقِ وَالْقَدَمِ

تقشعر له الأبدان حين يقرأ، وتخشع له القلوب حين يسمع، وتتسامى بتأثيره النفوس حين يتلى؛ إنه كلام الله الذي يكفل سعادة الدنيا والآخرة ... ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابِ﴾.

وإذا كان هذا هو شأن القرآن فإن الحري بالمسلم أن يتعاهده على الدوام؛ تلاوة وحفظاً، وتفهماً وتدبراً؛ لنحيا به، ونعامل معه، ونصلح أنفسنا ومجتمعنا على هديه، ونقيم حياتنا على مبادئه وتوجيهاته.

وجدير بأهل العلم وكل قادر من المسلمين أن يعنى بتقريب القرآن، والإعانة على تفهمه، وتدبره، وتفسيره؛ حتى يكون حاضراً في حياتهم، وتظل آياته البينات هدايات يهتدون بها، ومناراتٍ رشداً يستتبرون بها.

ومن هنا فقد رغب إلينا في الجمعية العلمية السعودية للقرآن وعلومه - الإخوة في المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد بحمي النسيم - أن نتولى تأليف كتاب في هداية

آيات من القرآن؛ لينتفع المسلمون بها، ويكون الكتاب ملائماً للقراءة على المصلين في أيام رمضان وغيره.

وقد رغبوا في أن تتظافر الجهود مع فريق من أعضاء الجمعية في إخراج مادة متكاملة خلال فترة وجيزة، لكن عوائق كثيرة قد تحول دون ذلك.

ولأمر أراحه الله بدأنا الاتصال بفضيلة الشيخ الدكتور: محمد بن إبراهيم الحمد عضو الجمعية فوجدنا بغيتنا عنده؛ إذ قبل مشكوراً أن يتولى إخراج الكتاب بتمامه رغم ضيق الوقت، وكثرة الأعباء فجزاه الله خيراً، وهو بحق كما قال عنه بعض عارفه: إمام في تأليف الكتب، وإمام في تأليف القلوب.

إن الكتاب إسهام في لفت الأنظار لتدبر الكتاب العزيز، وتأمل معانيه، ومعالجة أوضاع الحياة وفق هديه ونوره، وإن حقاً على الأمة التي تنشأ المخرج من معضلاتها، والسعادة لأجيالها أن تُقبل على هذا المعين الصافي؛ فتتهل من مورده، وتستقي من عذبه النмир، وتتحسس منه سبل العلاج لأدوائها.

أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب، وإن يجزي مؤلفه خير الجزاء، وأن يشيب إخواننا في الجمعية العلمية السعودية للقرآن وعلومه، وإخواننا في المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد بحمي النسيم على جهودهم المشكورة. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

**د. محمد بن سريع السريع**

رئيس مجلس إدارة الجمعية العلمية السعودية

للقرآن وعلومه

الرياض ١٤٣٠/٧/٤ هـ

## المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه  
ومن والاه ، أما بعد .

فلقد يسر الله لي وقوفاً عند بعض الآيات في كتابه العزيز ، فكتبت شيئاً من  
ذلك ، ونُشر بعضه ، ولم يُنشر باقيه .

وكنْتُ أرغب في مزيد من الكتابة في هذا الشأن ، وجمع ما تناثر من ذلك في  
كتاب واحد ؛ غير أن التردد كان حائلاً دون ذلك ؛ خشية ألا يرتقي العمل إلى  
الصورة المرضية .

وبعد طول تردُّدٍ ومشورة رأيت أن يخرج هذا العمل ، وأن يُتعاور فيما بعد  
بالزيادة والتهذيب ؛ فكان هذا الكتاب الذي يحمل ثلاثين وقفة في هداية آيات .

وهذه الوقفات لا تعني بالضرورة تفسير الآيات التي سترد في غضون هذا  
الكتاب ، وإنما هي تأملات ، ونظرات فيما تحمله تلك الآيات من هداية  
وإرشادات ، ومنطلقاً لما تدل عليه من إشارات ولطائف وتوجيهات .

وقد أحتاج أحياناً إلى بيان بعض معانيها ، وتحليل بعض عباراتها ، وذكر شيء  
مما قاله المفسرون في شأنها .

غير أن الغالب في تلك الآيات أنها واضحة للقارئ بادي الرأي .

والأغلب أن كل وقفة تكون عند آية واحدة ، ونادراً ما تكون عند أكثر من آية .

ثم إن هذه الآيات المختارة لا يربط بينها رابط في الجملة ، وإنما اختيرت في



الأصل دون أن تكون هناك نية لهذا العمل ، ولكونها تعالج ظواهر تشيع في الناس ، وتحمل في إشاراتها ، وإرشاداتها هدايةً ونوراً كما هو الشأن في جميع آيات الكتاب العزيز.

ولعل هذا العمل يكون نواة لعمل أكبر من ذلك.

وهذه الوقفات قد يناسب قراءتها على عموم الناس في شهر رمضان أو غيره؛ لتكون معينة على التدبر والتأمل لكتاب الله - عز وجل -.

ورغبة في الاختصار حُذِفَ من الكتاب الحواشي والعزو الذي ربما يثقله.  
والله المستعان وعليه التكلان ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

**محمد بن إبراهيم الحمد**

الزلفي : ص.ب : ٤٦٠

١٤٣٠/٦/١٣ هـ

جامعة القصيم - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية -

قسم العقيدة

[www.toislam.net](http://www.toislam.net)

[alhamad@toislam.net](mailto:alhamad@toislam.net)

## ١- ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد :

فإن الحديث ههنا سيدور حول قول الله - تعالى - : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

فقد قال - تبارك وتعالى - في آية فرضية الصيام : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة : ١٨٣ .

فقد بين الله - عز وجل - في هذه الآية الحكمة من الصيام ألا وهي التقوى ؛ فهي الحكمة الجامعة من تشريع الصيام .

وكل درس وعبرة تحصل من صيام شهر رمضان إنما هي مُتَفَرِّعَةٌ عن التقوى . والصيام من أكبر الحوافز لتحقيق التقوى ، وأحسن الطرق الموصلة إليها .

والتقوى خير الزاد ، وخير اللباس ، ووصية الله للأولين والآخرين .

والتقوى هي العدة في الشدائد ، والعون في الملمات ، ومُهَيِّطُ الرُّوح والطمأنينة ، وهي مُتَنَزِّلُ الصبر والسكينة .

وحقيقة التقوى كما قال طلق بن حبيب رضي الله عنه : « أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله » انتهى كلامه .

وتمام التقوى أن يعلم العبد ما يتقي ، قال بكر بن خنيس رضي الله عنه : « كيف يكون مَتَّقِيًّا مَنْ لَا يَدْرِي مَا يَتَّقِي »

وقال معروف الكرخي رضي الله عنه « إذا كنت لا تحسن تتقي أكلت الربا ، وإذا كنت لا تحسن تتقي لقيتك امرأة فلم تُغْضَ بِصْرِكَ » .

قال الشيخُ عبدالرحمن السعديُّ رحمه الله في تفسير آية فرضية الصيام، مبيناً كيف يكون الصيام سبباً للتقوى: «فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امثالَ أمر الله ونهيه؛ فمما اشتمل عليه من التقوى أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوهما، التي تميل إليها نفسه؛ متقرباً إلى الله، راجياً بتركها ثوابه؛ فهذا من التقوى.

ومنها أن الصائم يُدرب نفسه على مراقبة الله-تعالى- فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه؛ لعلمه باطلاع الله عليه.

ومنها أن الصيام يضيق مجاري الشيطان؛ فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي.

ومنها أن الصائم-في الغالب- تكثر طاعاته، والطاعات من خصال التقوى. ومنها أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء والمعدمين، وهذا من خصال التقوى» انتهى كلامه رحمه الله.

ومما يؤكد كون الصيام من أكبر أسباب التقوى ما جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام جُنة».

زاد سعيد بن منصور عن أبي الزناد «الصيامُ جُنةٌ كجُنةٍ أحدكم من القتال» ولأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه: «جُنةٌ وحصنٌ حصينٌ من النار».

وله من حديث أبي عبيدة بن الجراح: «الصيام جُنةٌ ما لم يخرقها».

قال ابن حجر رحمه الله في شرح هذا الحديث: «والجُنة» بضم الجيم: الوقاية

والستر.

وقد تبين من هذه الروايات مُتَعَلِّقُ السُّتْرِ، وأنه من النار، وبهذا جزم ابن عبد البر، وأما صاحب النهاية فقال: معنى كونه جُنَّةً: أي سِتْرَةً؛ يعني بحسب مشروعيته؛ فينبغي للصائم أن يصونه مما يفسده، وينقص ثوابه.

وإليه الإشارة بقوله: «إِذَا كَانَ يَوْمٌ صَوْمٌ أَحَدُكُمْ فَلَا يَرِفْثُ» الخ...  
ويصح أن يراد أنه سِتْرَةٌ بحسب فائدته، وهو إضعاف شهوات النفس، وإليه الإشارة بقوله: «يَدْعُ شَهْوَتَهُ» الخ...

ويصح أن يراد أنه سِتْرَةٌ بحسب ما يحصل من الثواب، وتضعيف الحسنات.  
وقال عياض في الإكمال: معناه: سِتْرَةٌ من الآثام، أو من النار، أو من جميع ذلك، وبالأخير جزم النووي.

وقال ابن العربي: وإنما كان الصوم جُنَّةً؛ لأنه إمساكٌ عن الشهواتِ، والنارُ محفوفةٌ بالشهوات؛ فالحاصلُ أنه إذا كفَّ نفسه عن الشهوات في الدنيا كان ذلك ساتراً له من النار في الآخرة.

وهكذا يتبين لنا معنى كون الصوم جُنَّةً، وأنه من أعظم أسباب اكتساب التقوى، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

## ٢- ﴿الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد

فإن القرآن الكريم: حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، سمّاه الله نوراً وتبياناً، وموعظة ورحمةً، وشفاءً لما في الصدور، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عنه كثرة الرد، لا يعوجّ فيقوم، ولا يزيغ فيستعَب، فيه القصص العجيبة، ودلائل التوحيد والنبوة، فيه المواعظ الحسنة، وفيه البراهين الجليلة القاطعة، التي تسبق إلى الأفهام ببادئ الرأي، وأول النظر، ويشارك كافة الخلق في إدراكها؛ فهو مثل الغذاء ينتفع به كلُّ إنسان، بل كالماء الذي ينتفع به الصبي، والرضيع، والرجل القوي والضعيف.

في القرآن حثٌّ على كل خلق جميل، وفيه التنفير من كل خلق ساقط رذيل ﴿خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الأعراف: ١٩٩.

هذا القرآن: هو الذي أحرزت به الأمة السعادة، وهو الذي اجتثَّ منها عروق الدُّلّة والاستكانة، وهو الذي رباها وأدبها، فزكّى منها النفوس، وصفى القرائح، وأذكى الفِطَن، وجلا المواهب، وأعلا الهمم، وأرهف الحس، وقوى العزائم، واستثار العقول.

وهو الذي غرس الإيمان في الأفئدة، وملاّ القلوب بالرحمة، وحفز الأيدي للعمل النافع، والأرجل للسعي المثمر، ثم ساق تلك القوى-على ما في الأرض من شرٍّ وباطلٍ وفسادٍ-فطهرها منه تطهيراً، وعمّرَها بالحق والإصلاح تعميراً.

هذا القرآن: هو الذي أنار العقول بالنور الإلهي؛ فأصبحت كشافاً عن الحقائق العليا، وطهر النفوس من أدران السقوط والإسفاف؛ فأصبحت نزاعة إلى المعالي، مُقدِّمةً على العظائم.

وبهذه الروح القرآنية اندفعت تلك النفوس بأصحابها تفتحُ الأذانَ قبل البلدان، وتمتلك بالعدل، والإحسان الأرواحَ قبل الأشباح.

هذا القرآن: هو الذي أخرج الله به من رعاة الغنم رعاة الأمم، ومن خمول الجهل أعلام الحكمة والعدل والعلم.

الله أكبر إن دين محمد	وكتابه أقوى وأقوم قبلاً
طلعت به شمس الهداية للورى	وأبى لها وصف الكمال أفولاً
والحق أبلغ في شريعته التي	جمعت فروعاً للهدى وأصولاً
لا تذكر الكتب السوالف عنده	طلع الصباح فاطفئوا القنديلاً

هذا هو القرآن، الذي قال الله - سبحانه وتعالى - فيه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي

أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ البقرة: ١٨٥.

فقوله - عز وجل - : ﴿أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ يحتمل عدة معانٍ تدور حول شهر

رمضان، وميزة إنزال القرآن فيه:

- فقد يكون المرادُ إنزال القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في رمضان،

كما جاء ذلك عن ابن عباس - رضي الله عنهما -.

- وقد يكون المرادُ أن ابتداء إنزال القرآن على محمد ﷺ كان في شهر رمضان.

- وقد يكون المراد أن القرآن قد نزل في مدح رمضان، والثناء عليه، والتتويه

بشأنه.

فما أحرانا خصوصاً في شهر رمضان أن نجدد العهد بالقرآن، وأن نكثر من تلاوته وتدبره، وعقله، والتخلق بأخلاقه، والامثال بأوامره، والانتهاز عن نواهيه، وأن يكون ذلك دأباً لنا في بقية أعمارنا؛ لنسعد في دنيانا وآخرتنا، ولننال الثواب الجزيل من ربنا - عز وجل -.

ولقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة في فضل تلاوة القرآن الكريم؛ فالله - عز وجل - أمر بتلاوة كتابه، وبين أن هذا هو دأب الصالحين، فقال - عز وجل - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُؤْفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)﴾ فاطر.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قرأ حرفاً من كتاب الله؛ فله بكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» رواه الترمذي وهو حديث صحيح.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اقرأ القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» رواه مسلم.

فقراءة القرآن خير وأجر وبركة في كل وقت، وهي في رمضان أعظم وأكبر.

ولقد كان جبريل - عليه السلام - يأتي النبي ﷺ في رمضان؛ فيدارسه القرآن كل ليلة، كما في الصحيحين عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة».

وفي العام الذي توفي فيه رسول الله ﷺ عارضه جبريل القرآن مرتين، رواه البخاري.

فيا لسعادة من أحب القرآن، وأقبل عليه تعلماً، وتعليماً، وتلاوة، وبذلاً،  
وعملاً لأجل نشره، والدعوة إليه؛ فيا لسعادة ذلك، ويا لعزته في الدنيا  
والآخرة، ويا لحرمان من حُرِم ذلك الخير، وصُدَّ عن ذلك النور.  
اللهم اجعلنا من أهل القرآن، الذين هم أهلك، وخاصتك، واجعلنا  
مفاتيح للخير، مغاليق للشر، مباركين أينما كنا.  
وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.



### ٣- ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد

فإن الحديث ههنا سيدور حول هداية قول الله - تعالى - : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ العلق: ١٤.

فهذه آية عظيمة في أول سورة نزلت في القرآن ، وهي سورة العلق.

آية تهز الوجدان ، وتفعل في النفس ما لا تفعله سلطات الدنيا ، ولا أحدث التقنيات في عالم المخبرات.

آية تضبط النوازع ، وتقوي الوازع ، وتكبح الجماع ، وتدعو إلى إحسان العمل ، وكمال المراقبة.

وقد جاءت بهذا البيان المعجز الذي لا تصل إليه قوة بشر.

جاءت بهذا التعبير الواضح مُبَيَّنَّةً عما تحتها من معنى ، جاءت بصيغة الاستفهام : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾.

وتحت هذه الآية من اللطائف والأسرار الشيء الكثير؛ ففيها إشارة إلى وجوب المراقبة لله - عز وجل - وفيها تهديد لمن يتمادى في الغي ، وفيها تلويح إلى وجوب الإقصار عن الشر ، وفيها تلميح إلى أن العلم باطلاع الله - عز وجل - على الخلائق أمر فطري لا يحتاج إلى دليل ، وفيها تعريضٌ بغاوة من يجهل هذه الحقيقة ، أو يكابر في شأنها.

فيا لله ما أجمل أن يستحضر كلُّ أحدٍ هذه الآية إذا امتدت عينه إلى خيانة ، أو

يُده إلى حرام، أو سارت قدمه إلى سوء، أو تحرك لسانه بقبيح.

وما أروع أن تكون هذه الآية نُصِبَ أعيننا إذا أردنا القيام بما أنيط بنا من عمل. وفي هذا سرٌّ بديعٌ، ودرسٌ عظيمٌ تُفيد منه الأمةُ بعامّة، ويفيد منه الأفرادُ بخاصّة؛ فواجب على المصلحين وقادة الأمم أن يتنبهوا لهذا المعنى، وأن يحرصوا على إشاعته في الناس؛ ذلكم أن وازعَ الدين والمراقبة لرب العالمين يفعل في النفوس ما لا يفعله وازعُ القوة والسلطان؛ فإذا أَلَفَ المرءُ أن يراقب ربه، ويستحضر شهوده وإطلاعه عليه - فإن المجتمعَ يأمّنُ بوائقه، ويستريحُ من كثيرٍ من شروره.

أما إذا كان الاعتماد على وازع القوة، وحارس القانون - فإن القوة قد تضعف، وإن الحارس قد يغفل، وإن القانون قد يُؤوّل، وقد يُتَحَايَلُ؛ للتخلص من سلطانه.

لذلك تكثر الجرائم والمفاسد إذا قلت التربية الدينية في مجتمع ما، فإذا أشعنا هذا المعنى في الناس، وعمدنا إلى تربيتهم بأسلوب الدين والفضيلة أرحنا واسترحنا، ووفّرنا جهوداً كبيرة، وقد تكون ضائعة في غير ما فائدة؛ فالمراقبة حارسٌ قويٌّ يمنع الإنسان من التفكير في الجرائم والشرور، والتقصير في أداء الحقوق.

فلا عجب - إذاً - أن تكون هذه الآية في أول سورة نزلت من القرآن الكريم؛ لكي يكون المؤمن على دُكرٍ من هذا المقام العالي الذي إذا تمثّله كان في قبيل المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم.

وتلك هي مرتبة الإحسان التي هي أعلى مراتب الدين ، والتي إذا استشعرها المؤمن حال قيامه بعبودية ربه كان عمله متقناً مضاعفاً؛ فإذا صلى مستشعراً ذلك المعنى تضاعف أجر صلاته ، وهكذا بقية الأعمال الصالحة.

ولعل الصيام من أعظم العبادات التي تتجلى بها عبودية المراقبة؛ فالصيام مدرسة لقيام تلك العبودية العظمى؛ ذلكم أن الصائم يمسك عن المفطرات طيلة النهار، فتراه أميناً على نفسه، رقيقاً عليها في الصغيرة والكبيرة، متمثلاً هيبة مولاه، واطلاعه، وشهوده كأنهم ما يكون، فلا تحدّثه نفسه بتناول مفطر ولو قلّ، ولا يخطر بباله أن ينقضّ صيامه ولو توارى عن الأعين؛ فيصِلُ بذلك إلى مرتبة الإحسان؛ حيث يعبد الله كأنه يراه.

ولهذا خصّ الله - عز وجل - الصيام من بين سائر الأعمال بأنه له، وهو يجزي به.

فقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل عمل ابن آدم له الحسنه بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف» قال الله - عز وجل - في الحديث: «إلا الصيام؛ فإنه لي وأنا أجزي به؛ إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي» الحديث.

وفي رواية: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي».

فالصيام سرٌّ بين العبد وبين ربه لا يطلع عليه غيره؛ فإنه مركب من نية باطنة لا يطلع عليها إلا الله، وترك لتناول الشهوات التي يُستخفى تناولها في العادة؛ فإذا ترك ما تدعوه إليه نفسه الله - عز وجل - حيث لا يطلع عليه غير من أمره ونهاه دل على صحة إيمانه، والله - عز وجل - يحب من عباده أن يعاملوه سراً بينهم

وبينه ، وأهل محبته يحبون أن يعاملوه هكذا؛ فإذا استشعر الصائم هذا المعنى العظيم انبعث إلى مراقبة الله - عز وجل - في شتى شؤونته؛ فالذي يطلع عليه في صيامه مطلع عليه في جميع أحواله.

وإذا راقب الإنسان ربّه ، واحترمه في خلواته أظهر الله فضله ، ورفع ذكره؛ فالجزء من جنس العمل ، ومن يعمل سوءاً يجز به.

قال أبو حازم رحمه الله : « لا يُحَسِّن عَبْدٌ فيما بينه وبين الله - عز وجل - إلا أحسن الله فيما بينه وبين الناس ، ولا يَعمُر - أي يفسد - فيما بينه وبين الله - عز وجل - إلا عمّر الله فيما بينه وبين العباد ، وَلَمْصَانَعَةُ وَجْهِ وَاحِدٍ أيسرُ من مصانعة الوجوه كلها؛ إنك إذا صانعت الله مالت الوجوه كلها إليك ، وإذا أفسدت ما بينك وبين الله شنأتك الوجوه كلها » .

اللهم ارزقنا خشيتك في الغيب والشهادة ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

### ٤- ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه ، أما بعد :

فإن فريضة الصلاة من أعظم القُرْبَات ، وأجلّ الطاعات ، وإن إقامتها على الوجه المطلوب - استجابة لأمر الله - عز وجل - إذ يقول : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ .

ومعنى إقامتها : أدائها في أوقاتها على هيئتها ، وأركانها ، وواجباتها ، وسننها ، كما كان يؤديها رسول الله ﷺ .

وإذا أقامها الإنسان على الوجه المطلوب حصلت له ثمرات عظيمة ، وفضائل جمة .

وإن استحضار تلك المعاني لمن أعظم ما يعين على إقامة الصلاة .  
وفيما يلي ذكر لشيء من ذلك .

١- أن إقامتها سلامة من الاتصاف بصفات المنافقين ، وسلامة من الحشر مع فرعون وقارون وهامان وأبي بن خلف؛ فمن ترك الصلاة حُشر مع أحد أئمة الكفر من هؤلاء كما قال - عليه الصلاة والسلام - .

٢- أنها قُرّة للعين ، وفرحٌ للفؤاد ، قال النبي ﷺ : «حُبِّبَ إِلَى مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ ، وَجُعِلَتْ قُرّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» . رواه أحمد والنسائي والحاكم ، وقال : هذا صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

قال ابن القيم رحمه الله معلقاً على هذا الحديث : «فأخبر أنه حُبِّبَ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئَانِ : «النِّسَاءُ وَالطِّيبُ» ثُمَّ قَالَ : «وَجُعِلَتْ قُرّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» .

وقرّة العين فوق المحبة ؛ فإنه ليس كلّ محبوبٍ تَقَرُّ بِهِ الْعَيْنُ ، وإنما تقرُّ بأعلى

المحوبات الذي يُحب لذاته ، وليس ذلك إلا الله الذي لا إله إلا هو .

إلى أن قال ﷺ : « فالصلاة قرّة عيون المحبين في هذه الدنيا ؛ لما فيه من مناجاة مَنْ لا تَقَرُّ العيونُ ، ولا تطمئن القلوب ، ولا تسكن النفوس إلا إليه ، والتنعّم بذكره ، والتذلل والخضوع له ، والقرب منه ولا سيما في حال السجود ، وتلك الحال أقرب ما يكون العبد من ربه فيها ، ومن هذا قول ﷺ : « يا بلال ! أرحنا بالصلاة » .

فأعلم بذلك أن راحته ﷺ في الصلاة ، كما أخبر أن قرّة عينه فيها ، فأين هذا من قول القائل : نصلي ونستريح من الصلاة ؟!

فالمحب راحته ، وقرّة عينه في الصلاة ، والغافل المعرض ليس له نصيب من ذلك ، بل الصلاة كبيرة شاقّة عليه ، إذا قام فيها كأنه على الجمر حتى يتخلّص منها ، وأحب الصلاة إليه أعجلها ، وأسرعها ؛ فإنه ليس له قرّة عين فيها ، ولا لقلبه راحة بها ، والعبد إذا قرّت عينه بشيء ، واستراح قلبه به فأشق ما عليه مفارقتها ، والمتكلّف الفارغ القلب من الله والدار الآخرة المبتلى بمحبة الدنيا أشق ما عليه الصلاة وأكره ما إليه طولها مع تفرغه ، وصحته ، وعدم اشتغاله » ، انتهى كلامه رحمه الله .

٣- أنها نورٌ في الوجه ، وقوة في القلب ، وأنها منشطة للجوارح .

٤- أن الصلاة التي كمل ظاهرها وباطنها تصعد ولها نورٌ وبرهانٌ كنور الشمس حتى تُعرّضَ على الله فيرضاها ويقبلها ، وتقول : حفظك الله كما حفظتني .

٥- الصلاة جالبة للرزق ، داحضة للظلم ، زاجرة عن الفحشاء والمنكر ، وهي قامةٌ للشهوات ، منزلةٌ للرحمات ، حافظةٌ للنعم ، دافعةٌ للنقم ، كاشفةٌ للهم والغم .

٦- الصلاة تقرب العبد من ربه ؛ فحظّ العبد من القرب من الله على قدر حظه من مقام الإحسان ، وبحسبه متفاوت الصلاة ، حتى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض ، وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد .

٧- في الصلاة تعليمٌ للجاهل ، وتذكيرٌ للفاضل ، وتشجيعٌ للمتكاسل ، وبالصلاة يحصل التعاونُ على البر والتقوى ، وتسودُ المودةُ بين المسلمين؛ فالقرب في الأبدان مدعاةٌ للقرب في القلوب.

٨- للصلاة تأثيرٌ عجيبٌ في دفع شرور الدنيا والآخرة ، ولا سيما إذا أُعطيت حقُّها من التكميل ظاهراً وباطناً؛ فما استُدْفعت شرورُ الدنيا والآخرة بمثل الصلاة ، وما استُجلبت مصالحُهما بمثل الصلاة؛ لأنها صلةٌ بين العبد وربه ، وبقدر تلك الصلاة تُفتَح له أبوابُ الخيرات ، وتنقطع أو تقل عنه الشرور والآفات ، وما ابتلي إثنان بعاهة أو مصيبة ، أو مرضٍ واحدٍ إلا كان حظُّ المصلي منهما أقلَّ ، وعاقبته أسلم ، وتلقيه وصبره ورضاه أكمل وأتمَّ.

٩- الصلاة سببٌ لاستسهال الصعاب ، وتحملُ المشاق؛ فحينما تتأزم الأمور ، وتضيق وتبلغ القلوبُ الحناجرَ يجد المؤمنون الصادقون قيمةَ الصلاة الخاشعة ، وحسن تأثيرها ، وبركة نتائجها.

١٠- الصلاة من أعظم الأسباب لتكفير السيئات ، ورفعة الدرجات ، وزيادة الحسنات.

١١- الصلاة سببٌ لحسن الخلق ، وطلاقة الوجه ، وطيب النفس ، وسموِّها.

١٢- الصلاة هي المددُ الروحيُّ الذي لا ينقطع ، والزاد المعنويُّ الذي لا ينضب؛ فهي أعظم غذاء وسقي لشجرة الإيمان؛ فهي التي تنميه ، وتثبتته.

١٣- المحافظةُ على الصلاة تقوي رغبةَ الإنسان في فعل الخيرات ، وتسهل عليه فعل الطاعات ، وتُضعف أو تُذهب دواعي الشر من نفسه ، وهذا أمر مشاهد محسوس؛ فإنك لا تجد محافظاً على الصلاة-فرضها ونفلها-إلا وجدت أثرَ ذلك في بقية أعماله.

١٤- أهل الصلاة أثبتُ الناس عند الفتن ، وأكثرهم غيرة على محارم الله.

١٥- الصلاة علاجٌ لأدواء النفس الكثيرة ، كالبخل ، والشح ، والحسد ، والهلع ،

والجزع ، والخور وغيرها.

١٦- للصلاة فوائد طيبة ، وذلك لما فيها من الرياضة المتنوعة ، المقوية للأعضاء ،

النافعة للبدن.

ومن ذلك أنها نافعةٌ في كثير من أوجاع البطن ؛ لأنها رياضة للنفس والبدن معاً.

أضف إلى ذلك الطهارة المتكررة ، وما فيها من نفع ، كل ذلك مشاهد محسوس.

ومن فوائدها الطيبة : أنها- كما مر- تقوي القلب ، وتشرح الصدر ، وتفرح النفسَ

والروحَ.

ومعلوم عند جميع الأطباء أن السعي في راحة القلب ، وسكون النفس ، وزوال

الهم والغم ، وحسن الاستقبال لحوادث الحياة -يعد من أكبر الأسباب الجالبة للصحة

المخفضة للآلام.

وذلك مشاهد مجرب في الصلاة خصوصاً صلاة الليل أوقات الأسحار.

ومن الفوائد الصحية التي تحصل بالصلاة : ما أظهره الطب الحديث من فوائد

عظيمة للصلاة ، وهي أن الدماغَ ينتفع انتفاعاً كبيراً بالصلاة ذات الخشوع ، كما قرر

ذلك كبار الأطباء في هذا العصر ، حتى من غير المسلمين ، ولعل هذا سر من أسرار

قوة عقول الصحابة ومن تبعهم بإحسان.

هذا فيض من غيظ من بركات الصلاة وثمراتها ، وكلما زاد المسلم اهتماماً بها ،

ومحافظة عليها زادت فائدته ، وعظمت بركته ، والعكس بالعكس.

اللهم اجعلنا من مقيمي الصلاة ، ومن يجدون قرة عيونهم بها.

وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.



### ٥- ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه  
ومن والاه أما بعد:

فهذه وقفات عن الصبر، مستوحاة من قوله - عز وجل -: ﴿وَبَشِّرِ  
الصَّابِرِينَ﴾ البقرة: ١٥٥.

فهو حديث عن الصبر؛ ذلك الخلق العظيم الذي أمر الله به، وأعلى مناره،  
وأكثر من ذكره في كتابه، وأثنى على أهله القائمين به، ووعدهم بالأجر الجزيل  
عنده.

قال - تعالى -: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ النحل: ١٢٧، وقال: ﴿وَلَمَنْ  
صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ الشورى: ٤٣، وقال - عز وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا  
الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: ٢٠٠.  
وقال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي  
أحد عطاءً أعظمَ ولا أوسعَ من الصبر».

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر».  
وقال: «أفضلُ عيشٍ أدركناه بالصبر، ولو أن الصبرَ كان من الرجال كان  
كراماً».

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الصبرُ مطيةٌ لا تكبو».  
وقال الحسن رضي الله عنه: «الصبرُ كنزٌ من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم  
عنده».

وهكذا يتبين لنا عظم خلق الصبر؛ فإذا تحلى الإنسان به كان جديراً بأن يفلح في حياته، وأن يقدم الخير العميم لأُمته، ويترك فيها الأثر الكبير. وإن عطل من الصبر فما أسرع خوره، وما أقل أثره.

ثم إن الإنسان-أيَّ إنسان-لا بد له من الصبر، إما اختياراً وإما اضطراراً؛ ذلك أنه عُرضةٌ لكثير من البلاء في نفسه بالمرض، وفي ماله بالضياع، وفي أولاده وأحبته بالموت، وفي حياته العامة بالحروب وتوابعها من فقدان كثير من حاجاته التي تعودها في حياته؛ فإذا لم يتعود الصبر على المشاق وعلى ترك ما يألَف وقع صريع تلك الأحداث.

وكذلك حال الإنسان مع الشهوات؛ فهي تنزين له، وتغريه، وتمثل له بكل سبيل، فإذا لم يكن معه رادع من الصبر، ووازع من الإيمان أوشك أن يتردى في الحضيض.

وبالجملة فإن الصبر من أعظم الأخلاق، وأجلّ العبادات، وإن أعظم الصبر وأحمده عاقبة الصبر على امثال أمر الله، والانتفاء عما نهى الله عنه؛ لأنه به تخلص الطاعة، ويصح الدين، ويستحق الثواب؛ فليس لمن قل صبره على الطاعة حظ من برٍّ، ولا نصيب من صلاح.

ومن الصبر المحمود: الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوة، وأعوز نيئه من مسرة مأمولة، فإن الصبر عنها يُعقب السلو منها، والأسف بعد اليأس خرق. ومن جميل الصبر: الصبر فيما يُخشى حدوثه من رهبة يخافها، أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها، فلا يتعجل همّ ما لم يأت؛ فإن أكثر الهموم كاذبة، وإن الأغلب من الخوف مدفوع.

ومن جميل الصبر الصبرُ على ما نزل من مكروه، أو حلّ من أمر مخوف؛  
فبالصبر في هذا تنفتحُ وجوهُ الآراءِ، وتُسْتَدْفَعُ مكائِدُ الأعداءِ؛ فإن من قلّ صبره  
عزُبَ رأيه، واشتدَّ جزعُه، فصار صريعَ همومه، وفريسةَ غمومه.

ثم إن الناس إذا تُركوا وطباعهم وما أُودِعَ فيها من حبٍّ للراحة، وإيثارٍ  
للدعة، ولم يُشدَّ أزرُهُمْ بإرشادِ إلهي تطمئن إليه نفوسهم، ويثقون بحسن  
نتائجه. عجزت كواهلُهم عن حمل أعباء الحياة، وخارت قواهم أمام مغرياتِها،  
وذاب احتمالُهم إزاء ملذاتها وشهواتها؛ فَيَفْقِدُونَ كُلَّ استعدادٍ لتحصيل السمو،  
والعزة، والمنزلة اللائقة.

فلهذا اختار الله لهم من شرائع دينه ما يصقلُ أرواحهم، ويزكي نفوسهم،  
ويمحص قلوبهم، ويربي ملكات الخير فيهم.

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

## ٦- ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

أما بعد

فإن الحديث ههنا سيدور حول قوله - تعالى - : ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ .

فقد تأملت في قوله الله - عز وجل - : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ الفرقان: ٦٨-٦٩ .

ووجدت أن العلماء قد اختلفوا في صفة تبديل السيئات حسنات.

قال ابن القيم رحمه الله : « واختلفوا في صفة هذا التبديل ، وهل هو في الدنيا أو في الآخرة ؟ على قولين : فقال ابن عباس وأصحابه هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها ، فبدلهم بالشرك إيماناً ، وبالزنا عفة وإحصاناً ، وبالكذب صدقاً ، وبالخيانة أمانة » .

فعلى هذا معنى الآية : أن صفاتهم القبيحة ، وأعمالهم السيئة بُدِّلُوا عوضها صفات جميلةً ، وأعمالاً صالحةً ، كما يبدِّلُ المريضُ بالمرضِ صحةً ، والمبتلى ببلائه عافية .

وقال سعيد بن المسيب وغيره من التابعين : « هو تبديل الله سيئاتهم التي

عملوها بحسنات يوم القيامة ، فيعطيهن مكان كل سيئة حسنة .

ثم قال ابن القيم رحمه الله بعد أن تكلم على القولين السابقين : « إذا علم هذا فزوالُ مُوجِبِ الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح وهي أقوى الأسباب ، وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار ؛ فإذا تطهر بالنار وزال أثرُ الوسخ والخبث عنه أُعطي مكانُ كلِّ سيئةٍ حسنةً ، فإذا تطهر بالتوبة النصوح وزال عنه بها أثرُ وسخِ الذنوب وخبثُها كان أولى بأن يعطى مكانُ كلِّ سيئةٍ حسنةً ؛ لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظمُ من إزالة النار ، وأحبُّ إلى الله .

وإزالة النار بدل منها ، وهي الأصل ؛ فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول .  
وقال : « التائبُ قد بَدَلَ كلِّ سيئةٍ بندمه عليها حسنةً ؛ إذ هو توبة تلك السيئة ، والندمُ توبةٌ ، والتوبةُ من كل ذنبٍ حسنةٌ ؛ فصار كلُّ ذنبٍ عَمَلَهُ زائلاً بالتوبة التي حَلَّتْ محلَّهُ وهي حسنةٌ ؛ فصار له مكان كلِّ سيئةٍ حسنةٌ بهذا الاعتبار ؛ فتأملْه ؛ فإنه من ألطف الوجوه .

وبناءً على هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة ، وهذا من أسرار التوبة ولطائفها .

هذا هو مُحَصَّلُ أقوال العلماء في صفة التبديل .

ولكن يبقى تساؤل يثار عن سبب تبديل السيئات حسنات ، فيقال : هل يكون من كثرت سيئاته وعظمت أفضل ممن قلَّت سيئاته وخفَّت إذا هما تابا ، وكيف يكون ذلك ؟ وهل لكثرة السيئات مزية بعد التوبة النصوح ؟

كان هذا التساؤل يرد علي كثيراً ولم أطلع - على قلة اطلاعي - على شيء من كلام العلماء في ذلك ، فخطر في بالي سببٌ لعلَّه يجيب عن هذا التساؤل ؛ فيقال :

إن من أسباب مضاعفة الأعمال ترك الإنسان ما تشتهيه نفسه من الشهوات المحرمة إذا هو تركها خالصاً من قلبه.

ولا ريب أن كثرة المعاصي تُضعف القلب، وتحوّل دون التوبة الصالحة الخالصة النصوح؛ لأن الذي يقع في الذنوب الكثيرة الكبيرة يقوى تعلُّقه بها، ويصعبُ عليه الخلاصُ منها؛ فإذا أراد التوبة والإقلاع عنها كان محتاجاً إلى قوة إخلاص، وصدق عزيمة، وشدة قهر للنفس ومنازعة لها.

فإذا اقتحم تلك العقبة؛ فقدع نفسه، وقهرها، وتجرع مرارة الصبر، وغصص الحرمان - كان جديراً بتلك الكرامة، ألا وهي تبديل السيئات حسنات.

أما من كانت سيئاته قليلة صغيرة فربما لا يحتاج إلى كبير عناء ومجاهدة؛ فيكون أجره على قدر مجاهدته، وقد يكون له أعمال صالحة تفوق أعمال غيره ممن له سيئات كبيرة كثيرة ثم تاب عنها توبة نصوحاً، فهذا مُلَخَّصُ ما خطر لي في هذا السياق.

ثم قرأت بعد ذلك كلاماً لابن القيم في كتابه الفوائد ربما يعضد ذلك المعنى، يقول ﷺ: «وقد كتبوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه عن هذه المسألة أيهما أفضل: رجل لم تخطر له الشهوات ولم تمر بباله، أو رجل نازعته إليها نفسه فتركها لله؟ فكتب عمر: إن الذي تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله - عز وجل - من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم».

وهكذا من عَرَفَ البدع والشرك والباطل وطرقه؛ فأبغضها لله، وحذرها، وحذّر منها، ودفعها عن نفسه، ولم يدعها تخدش وجه إيمانه، ولا تورثه شبهة، ولا شكاً، بل يزداد بمعرفتها بصيرة في الحق ومحبة له، وكراهة لها، ونفرة عنها -

أفضل ممن لا تخطر بباله ، ولا تمرُّ بقلبه ؛ فإنه كلما مرَّت بقلبه ، وتصوَّرت له ازداد محبة للحق ، ومعرفة بقدره وسروراً به ؛ فيقوى إيمانه به .

كما أن صاحب خواطر الشهوات والمعاصي كلما مرَّت به ، فرغب عنها إلى ضدها ازداد محبةً لضدها ورغبة فيه وطلباً له وحرصاً عليه ؛ فما ابتلى الله - سبحانه - عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي ، وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبة ما هو أفضل منها ، وخير له ، وأنفع ، وأدوم ، وليجاهد نفسه على تركها له - سبحانه - فتورثه تلك المجاهدة الوصولَ إلى المحبوب الأعلى .

فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات ، واشتدَّت إرادته لها وشوقه إليها - صرف ذلك الشوق والإرادة والمحبة إلى النوع العالي الدائم ؛ فكان طلبه له أشد وحرصه عليه أتم ، بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك ؛ فإنها وإن كانت طالبة للأعلى لكن بين الطالبين فرق عظيم .

ألا ترى أن من مشى إلى محبوبه على الجمر والشوك أعظم ممن مشى إليه راكباً على النجائب ! فليس من أثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها إلى غيره ؛ فهو - سبحانه - يبتلي عبده بالشهوات ، إما حجاباً له عنه ، أو حجاباً له يوصله إلى رضاه وقربه وكرامته » انتهى كلام ابن القيم رحمه الله .

هذا هو ما تحصل في هذا من معنى قوله - تعالى - : ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

## ٧- ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه  
أما بعد

فإن الحديث سيدور حول قوله - تعالى - : ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ .

فهذا العنوان - كما لا يخفى - جزء من آية من سورة الأعراف ، وتامها ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٠) .

وقبلها قوله - تعالى - : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ .

فهاتان الآيتان وصية ربانية عظيمة للتعامل مع الأعداء من الإنس والجن .

ولهما نظير في موضعين من القرآن الكريم ، أحدهما : في سورة المؤمنون وهو قوله : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) .

والثاني : في سورة فصلت ، وهو قوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) .

والمقصود بيانه ههنا قوله - تعالى - في سورة الأعراف : ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ...﴾ الآية .

ولقد تكلم المفسرون - رحمهم الله - عن هذه الآية كغيرها ، فأوضحوا معناها بياناً شافياً .

وما قيل في ذلك : إن النزغ ، والنزغ بمعنى واحد ، ومعناه : النخس .



فجاء تعبیر القرآن البلیغ بكلمة النزغ لما فيها من معنى النغز، والنخس، فكأن الشیطان یأتی بشيء مُحَدَّدٍ یَنَحْسُهُ فی الإنسان، ویغرزه فیهِ؛ لیثیره إلى ما لا یرضی الله - عز وجل -.

فذلك هو شعور الإنسان بالوسوسة والتشیط عن الخیر، أو الحث والإزعاج إلى الشر؛ فأمر - إذا وَجَدَ فی نفسه تلك الخواطر - أن یرتد عن الله؛ فقد ضمن - جلا وعلا - له أن یعیده إذا استعاد؛ لأنه هو الذي أمر بهذا، فبذلك تَسَلَّمَ نَفْسُهُ من أن تغشاها غواشي السوء؛ فهذا معنى الآية.

وفی ذلك إشارة إلى أن نزغات الشیطان قد تزداد ثورتها فی بعض الأحيان إذا صادف من الإنسان غفلةً، أو شهوةً، أو غضباً، أو فراغاً، أو أي نوع من المثیرات التي تحرك فیهِ نوازع الشر.

ولهذا یجد الإنسان ذلك من نفسه؛ حیث تتحرك فیهِ تلك الدواعي، وتزید فی بعض الأوقات والأحوال؛ فجدير به إذا شعر بتلك التزغات أن یفزع إلى الاستعاذة بالله، وألا یستسلم ویستسلم مع تلك الخواطر.

وكلما اشتدت وطأة الشیطان علیه فلیلجأ إلى الله طالباً منه العوذ، والنجاة. ولیعلم أن اشتداد تلك الوطأة لا یلبث إلا فترة ثم یزول بإذن الله؛ فلیبادر إلى الاستعاذة، ولیتد ویرث؛ فلا یُقدِّم على ما زین له الشیطان.

وإذا هممت بأمر سوء فائق - وإذا هممت بأمر خیر فاعجل - ثم إذا ما أغواه الشیطان، وأزله، وأصاب منه - فلیستغفر، ولیستدرك ما فرط منه بالتوبة، والحسنات الماحية.

وهذا ما أشار إليه قوله - عز وجل - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنْ

الشَّيْطَانُ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١٠﴾

فهذا علاج رباني لنزغات الشيطان إذا ثارت ثوائرها.

ثم إنه يجدر بالإنسان أن يتقي تلك النزغات قبل حلولها، وذلك بالبعد عن المثيرات التي ينفذ منها الشيطان سواء مثيرات الغضب، أو الشهوة، أو نحوها؛ فإن مثل النفوس - بما جُبلت عليه من ميل إلى الشهوات، وما أودع فيها من غرائز تميل مع الهوى حيث مال - كمثل البارود، والوقود، وسائر المواد القابلة للإشتعال؛ فإن هذه المواد وما جرى مجراها متى كانت بعيدة عما يُشعل فتيلها، ويُذكي أوارها - بقيت ساكنة لا يُخشى خطرُها، والعكس.

وكذلك النفوس؛ فإنها تظل ساكنةً وادعةً هادئةً، فإذا اقتربت مما يثيرها، ويحرك نوازعها إلى الشرور من مسموع، أو مشموم أو منظور - ثارت كوامنها، وهاجت شرورها، وتحرك داؤها، وطغت أهواؤها.

وكما يجمل بالإنسان أن يبتعد عن المثيرات والنوازع التي تحرك شروره فكذلك يجمل به أن يصلح خواطره، وأفكاره، وذلك بتصحيح مسارها، وتوجيهها إلى ما ينفع، والبعد بها عن كل ما يضر.

وللإمام ابن القيم في كتابه الفوائد ص ٢٤٩-٢٥١، كلام جميل في هذا الشأن، يقول رحمته الله: «مبدأ كل علم نظري، وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار؛ فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة؛ فصالح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها؛ فصالح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليها وإلهها، صاعدةً إليه، دائرةً على مرضاته ومحابته؛ فإنه - سبحانه - به كل صلاح، ومن عنده

كل هدى، ومن توفيقه كل رشد، ومن تولّيه لعبده كل حفظ، ومن تولّيه وإعراضه عنه كل ضلال وشقاء».

إلى أن قال: «وإياك أن تُمكن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك؛ فإنه يفسدها عليك فساداً يصعب تداركه، ويلقي إليك أنواع الوسوس والأفكار المضرة، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، وأنت الذي أعنته على نفسك بتمكينه من قلبك، وخواطرك فمَلَكها عليك» انتهى كلامه ﷺ.

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد.

## ٨- تأملات قرآنية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

أما بعد

فهذه تأملات قصيرة لإحدى عشرة آية.

أولاً: في قوله -تعالى- في سورة طه: ﴿وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ دليل على أن

نبي الله موسى -عليه السلام- كان يرعى الغنم، وما من نبي إلا وقد رعى الغنم -كما أخبر بذلك النبي ﷺ-.

ولعل السر في ذلك حصول التدرج من رعى الغنم إلى رعى الأمم؛ فالغنم فيها الهزيلة، والقوية، والملائمة، والنافرة، والسريعة، والبطيئة؛ فيحتاج راعيها إلى صبر، ومدارة، وسعة بال، ومراعاة.

وكذلك الحال بالنسبة للبشر، ففيهم العجول، وفيهم المترث، وفيهم المبادر، وفيهم المتباطئ، وفيهم الغضوب، وفيهم الحليم، وهكذا... فإذا وطَّن نفسه على حسن الرعاية للغنم كان ذلك عوناً له على حسن رعاية الأمم.

ثانياً: في قوله -تعالى- في سورة طه على لسان موسى -عليه السلام-: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ إلى قوله: ﴿كَيْ تُسَبِّحَكَ﴾ وقوله على لسان زكريا -عليه السلام-: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْثَنِي﴾ أدب من آداب الدعاء، وهو نبل الغاية، وشرف المقصد، وقريب منه قوله ﷺ: «اللهم اشف عبدك فلاناً ينكأ لك عدواً، ويمش لك إلى صلاة».

ثالثاً: قوله -تعالى- في سورة آل عمران: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَكَلَوْ

كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تُفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴿ يفيد أن القلوب لا تجتمع إلا على من كان رفيقاً، رحيماً، ليناً، وأنها لا تُقْبَلُ على صاحب القلب القاسي وإن بلغ ما بلغ من العلم والجاه.

رابعاً: في قوله -تعالى- في سورة ص: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ أدبٌ من آداب الدعاء، وهو الطموح، وعلو الهمة، وعِظَم الرغبة.

فسليمان -عليه السلام- لم يكتفِ بسؤال الله المغفرة، ولكنه -لكبر نفسه، وعلو همته، وعلمه بسعة فضل ربه- سأله مع ذلك مُلْكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده. فكانت النتيجة أن أجاب الله دعاءه، وسخر له الريح، والشياطين، وإن له في الآخرة لزلفى وحسن مآب.

خامساً: في قوله -تعالى- في سورة الحشر: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ إشارة إلى أنه يحسن بالداعي إذا أراد أن يدعو لنفسه ولغيره أن يبدأ بنفسه ثم يثني بغيره.

ولهذا الدعاء القرآني نظائر كثيرة من الكتاب والسنة.

سادساً: في قوله -تعالى- في سورة القصص عن موسى -عليه السلام-: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ إشارة إلى سبب من أسباب إجابة الدعاء، وهو إعلان الافتقار إلى الله، وإظهار المسكنة إليه -عز وجل-.

سابعاً: في قوله -تعالى- عن يونس -عليه السلام- في سورة الأنبياء: ﴿ فَتَدَايِ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ سببٌ من أسباب إجابة الدعاء، وهو إظهار الذلة، والإقرار بالذنب، ولهذا كان من أفضل الأدعية الدعاء المعروف بسيد الاستغفار؛ لتضمنه ذلك المعنى.

ثامناً: في قوله -تعالى- في سورة يوسف: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ مشروعية الفرار من الفتن مهما بلغ الإنسان من العلم، والدين، والعقل.

تاسعاً: في قوله -تعالى- في سورة النساء: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ بيان لضعف الإنسان الجليلي، وفيه إرشاد له ألا يغتر بنفسه؛ فيلقي بها في مواطن الفتن؛ ثقة بعلمه، ودينه؛ فمن حام حول الحمى أوشك أن يرتع فيه.

عاشراً: في قوله -تعالى- في سورة طه: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ بيان لمدى حاجة الداعية إلى انشراح الصدر؛ حتى يتمكن من إيصال دعوته بأيسر كلفة، ولأجل أن يراه الناس على أكمل ما يكون من السرور؛ فتسري تلك الروح منه إلى المدعوين؛ فيتحقق مقصد من أعظم مقاصد الدعوة ألا وهو الوصول إلى السعادة.

أما إذا ضاق صدره، وقل صبره، فلن يقوم بعمل كبير، ولن يصدر عنه خير كثير.

وأما ما روي من أن النبي ﷺ كان متواصل الأحزان فلا يثبت ذلك عنه. وحادي عشر: في قوله -تعالى- في سورة طه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ عزاء لمن يلاقي ما يلاقي من جرأ أمره أهله بالصلاة، وإيقاظهم لها خصوصاً صلاة الفجر؛ فقوله ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ أبلغ ما يكون من العبارات، ولا تغني عنها في هذا السياق لفظة أخرى؛ لما فيها من معنى المثابرة، والاستمرار على هذه الخصلة؛ كيف وقد خُتِمت تلك الآية بضمأن الرزق، وحسن العاقبة لمن كان هذا شأنه؟

فيالها من آية تبعث الروح، وتُمدد الإنسان بالصبر، واليقين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

### ٩- ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه  
ومن والاه أما بعد

فإن الحديث سيكون حول هداية قول الله - تعالى - : ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ  
عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ فاطر: ٨.

فهذه جزء من آية في سورة فاطر، وتام الآية: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ  
فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ  
حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

ففي هذه الآية يبين - جل وعلا - لنبيه ﷺ أن مَنْ زَيَّنَ الشيطانُ له عَمَلَهُ  
القبيح، فجعله حسناً في عينه ليس كمن هداه الله إلى سواء الصراط؛ فهل يستوي  
هذا وهذا؟!

فالأول عمل السييء، ورأى الحق باطلاً، والباطل حقاً.

والثاني: عمل الحسن، ورأى الحق حقاً، والباطل باطلاً.

أما الهداية والإضلال فهي بيد الله - عز وجل -.

فإذا كان الأمر كذلك فلا تُهْلِكْ نفسك حزناً على الضالين؛ فليس عليك إلا  
البلاغ، وليس عليك من هداهم من شيء؛ فالله عليم بأعمالهم، وهو الذي  
يجازيهم عليها.

فهذا هو معنى تلك الآية الكريمة، وأنت إذا وقفت عندها، وجدت أنها بَلَسَمٌ  
نافعٌ لكثير من المشكلات، ودواء ناجعٌ للعديد من المعضلات.

وذلك أن كثيراً من الناس يرومُ الإصلاحَ، ويسعى لدرك النجاح سواء في شأنه الخاص، أو شأن غيره ممن حوله، أو شأن أمته جمعاء.

فتراه يحضُّ نُصْحَهُ، ويبذل قصارى جهده، ويقدم عُصَاةَ فكره في سبيل إرشاد غاوٍ، أو دلالة حائر، أو الارتقاء بمقصر، وهلم جرا.

فإذا لم يظفر ببغيته، ولم تحصل له طَلْبَتُهُ - قَرَعَ سِنُّهُ، وَقَلَبَ كَفِيهِ.

وترى من الناس من يعاني الأمرين من أناس لا بد له من معاشرتهم ومداراتهم، فقد يتلى بوالد شرس، أو رئيس متسلط، أو ولد عاق، أو أخ قاطع، أو تلميذ كسول أو شقي؛ فيحاول إصلاحهم، والنهوض بهم مرة إثر أخرى، فإذا لم تأتِ الأحوال على ما يريد زادت حسراته، وتوالت أحزانه؛ فكان هو والزمان على نفسه.

وربما استشار غيره ممن لهم دراية وعلم في تلك الشؤون، فأشاروا عليه بأن يأخذ بالأسباب، ويلج البيوت من الأبواب، فيجيبهم بأنه لم يدع سبيلاً إلا سلكه، ولا باباً إلا ولجه ومع ذلك لم يحصل على مراده بزعمه.

ولا يقف الأمر عند مجرد اجترار الأحزان والحسرات، بل قد يترتب على ذلك فوات خيرات كثيرة، وأبواب من البر متنوعة؛ حيث أشغل نفسه، وشَتَّت قلبه، وأضاع وقته بما لا طائل تحته، ولا طاقة له فيه.

فما الحل في مثل هذه الأحوال وغيرها مما يقاس عليها؟

هل يقف الإنسان واجماً أمامها؟ وهل يسترسل مع أحزانه إزاءها؟

الجواب: لا، والحل بأن يستحضر أنه محسن في عمله، مثاب على قدر احتسابه، وما عليه بعد ذلك إلا أن يستمر في صنيعه، ويمضي في مصالحه؛ فإذا



قمت بما يجب عليك، وسلكت سبيل الحكمة في نصحك، وبذلت جهدك ومستطاعك، ثم أعييتك الحيلة في الوصول إلى مرادك ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ و ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ.

ومما يدخل في هذا القبيل ما يكون في شأن بعض الناس مع أولاده؛ فكثيراً ما يؤمل الوالد في أولاده أن يكونوا على قدر كبير من المروءة، والعلم، والتميز، وتراه يسعى سعيه، ويبذل مستطاعه في ذلك السبيل.

وقد يكون الوالد راغباً في رؤية ما فاته من فرص ماثلة في أولاده. ولكن قد تسير الأمور على غير مراده، فلا يكون الأولاد على وفق ما أراد وأمل.

ومن هنا قد يصاب بخيبة أمل، وربما ضاق ذرعاً بفوات ما توقعه من خير، ووقع في الاعتراض على الحكمة الربانية.

وربما صار يغبط فلاناً وفلاناً ممن صار أولادهم ذوي تميز، وعلم، وكفاءة.

وقد يزهد بأولاده، ولم يعد يراهم أهلاً لأن يبذل من أجلهم ما يبذل.

وهكذا يضيق صدره، وتتنغص حياته.

ولو اتسع عقله، وبعُدَتْ نظرته، ورضي بقسمة ربه لما وقع في بحر الحسرات،

وإنما سلّم، واستبشر، وأمل، وانتظر الخير، وصار لسان حاله يقول:

وعليّ أن أسعى وليّ — — — عليّ إدراك النجاح

فهو - إذاً - محسن، مأجور، مثاب على ما بذل.

ولكنّ مقاليد الأمور بيد الله - عز وجل - فحريّ به أن يرضي، ويقنع،

وَيُسَلِّمُ، وَيتَحَرَى الحَيْرَةَ، فربما صلحوا بعد حين، وادَّكروا بَعْدَ أمة، وربما خرج من أصلا بهم مَنْ يَنَالُهُ بِرُهُمْ، ودعواؤهم.  
وجدير بالوالد أن يَقْبَلَ أولادَه على علائهم؛ فيعاملهم على ما هم عليه ولو كانوا خلاف ما يؤمل.

والعرب تقول في أمثالها: إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون.  
وتقول: أَتَفُكَ مِنْكَ وَإِنْ ذَنْ<sup>(١)</sup>، وَعَيْصُكَ<sup>(٢)</sup> مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَشْبَا<sup>(٣)</sup>.  
وإذا كانت الأخرى بحيث لم يرضَ، ولم يُسَلِّمْ فَسَيَمَلُّ منه أولاده، وربما زادوه وهنا على وهن؛ فكانت الحسرة عليه مضاعفة.  
والحاصل أنه ينبغي للإنسان أن يبذل ما في وسعه في تحصيل الخير، وله أن يؤمل الآمال العراض، ويسلك السبل الموصلة إليها؛ فإذا جاءت الأمور على خلاف ما يرى رضي وتعزى بقدر الله ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ و﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.  
وصلّى الله وسلم على نبينا محمد.

١ - ذَنْ: سال مخاطه.

٢ - عَيْصُكَ: الجماعة من الصدر يجتمع في مكان واحد.

٣ - أَشْبَا: الأشب شدة التفات الشجر.

### ١٠- ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد  
فإن الحديث سيدور ههنا حول هداية قول الله - تعالى -: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ  
الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ طه: ٢.

فهذه الآية استُفْتُحَتْ بها سورة طه - كما هو معلوم..

فما أروعها من استفتاح، وما أبرعه من استهلال؛ حيث تبيّن من خلاله أن هذا  
القرآن وما فيه من أوامر، ونواهٍ، وإرشادات، وقصص، وأحكام، وأخبار - إنما  
أنزل لمحض السعادة؛ لذا فإنه حقيق على المسلم الذي يؤمن بهذا القرآن ومُنزَله،  
والمُنزَل عليه - أن يدرك هذا المعنى العظيم، ويستحضر أن جلب السعادة، وطرد  
الهم من أعظم مقاصد تلك السورة، بل والقرآن والشريعة عموماً.  
والتفسير العملي لذلك كان في سيرة النبي ﷺ حيث كان أكثر الناس تبسماً،  
وإشراقاً، وطلاقة، وأنساً، ورضاً، وسروراً.

وما قعد به عن ذلك كثرة الآلام، والمصائب، والمشاق التي تمر به.  
وفي هذا إرشاد عظيم لمن يظن أن عبوس الجبين، وكَرْفَ العَرنين، وتَجَهُّمَ  
الأسارير، وتَكَلُّفَ التوقُّر، واجترار المآسي، وسواد النظرة، وإساءة الظن  
بِالآخرين - هو علامةُ التدين الصحيح.

لا، ليس الأمر كذلك، بل هو بعكسه تماماً.

ولو كان كذلك لكننا ندعو الناس إلى ما فيه شقاؤهم، وهمُّهم، وتعاستهم؛  
كيف يكون كذلك ونحن نقول بأفواهنا: إن الإسلام والتدين الصحيح هو سبيل  
السعادة في العاجل والآجل؟!!

فحقيق على من آمن بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً - أن يستحضر هذا المعنى العظيم، وأن يكون على باله دائماً؛ فيستقبل الحياة وما فيها من تكاليف، ويقوم بما أمره الله به بكل ارتياح، وسرور؛ فإذا وُفق لما يرجوه من نجاح، وطاعة حمد الله، واستمر على الطاعة، وإذا أتت الأمور على خلاف ما يريد تعزى بقدر الله، وإذا خُذل؛ فوقع في المعصية استغفر، وتاب ورجع إلى مولاه. وهكذا سيرته مع الناس؛ حيث يسعى سعيه لإرشادهم إلى الخير، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر؛ فإذا حصلت الإجابة فيها ونعمت، وإذا كانت الأخرى لم تذهب نفسه عليهم حسرات.

فهذا سر من أسرار السعادة، وهو مما يحتاج إلى صبر ومراوضة، ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فصلت: ٣٥. وإن مما يعين على تمثيل تلك المعاني، وتمكّنها في قرارات النفوس أموراً منها: طهارة القلب وسلامة المقاصد، والبعد عن مواطن الإثارة قدر المستطاع: فمن علم أن شيئاً معيناً يهيجُه فلينأ عنه، وليبتعد عن الأوساط التي تسببه؛ فإذا تمت راحته تم فرحه وسروره.

ومما يحسن في هذا الصدد أن يحمي المرء نفسه من مؤثرات الخوف، سواء ما يثيره في نفسه، أو ما يثيره من حوله؛ فإن الخوف من الأمراض التي تنغص الحياة، وتذهب بالسعادة، فهو مرض خطير قل أن يسلم منه إنسان، وهو أشكال وألوان، وهو مما يوجه أعمال الإنسان طوع وإشارته وحسب إيحائه، وهو في كثير من الأحيان يصد عن العمل، ويشلُّ قوة التفكير، ويسبب اليأس، ويفقد الأمل، مع أن أكثره أوهام لا حقيقة لها.

وَرُبَّ أَمُورٍ لَا تُضِيرُكَ ضَيْرَةٌ وَلِلْقَلْبِ مِنْ مَخْشَاتِهِنَّ وَجِيبٌ  
ومن أعظم ما يعين على طرد الحزن قوة الاحتمال وذلك يدرك بالتمرين؛  
فالصانع يكتسب صناعته بالتمرين، والموظف يتقن عمله بالتمرين، والأخلاق  
الفاضلة أو الرذيلة كذلك «وإنما الحلم بالتحلم، وإنما العلم بالتعلم» «ومن  
يتصبر يصبره الله».

فإذا قوي احتماله هان عليه كثير مما يلقيه، وحسن تعامله مع ما يواجهه.  
ومن ذلك محاربة اليأس؛ فليس شيء يُعبسُ الوجه والنفس كاليأس؛ فاعتقادك  
أن لا مستقبل لك، ولا أمل في حياتك، ولا خير ينتظرك، ولا حل لمشكلاتك -  
سُمُّ قاتل، وسجن مظلم، يصدُّ النفس، ويقمعها، ولا يزال بالإنسان حتى  
يهلكه.

وعلى العكس من ذلك فإن تَوَقُّعه الخير، وأمله في الحياة يحمله على أن يوسع  
مداركه، وعلى الجِد فيما اختاره من صنوف العيش، وعلى استعمال ما وهبه  
الله خير استعمال.

فإذا أردت السرور فحارب اليأس، واقطع أسبابه، وعود نفسك الأمل،  
وتوقع الخير في المستقبل.

ومما يطرد به الهم محاربة الكآبة؛ فالاستسلام للحزن، والإغراق في التشاؤم،  
والاسترسال مع الهم، والخوف من وقوع المكروه، والإفراط في تقدير الشر - مما  
ينغص الحياة، ويقلل الإنتاج، ويزيد الآلام، ويضاعف البؤس والشقاء؛ فحارب  
الكآبة من نفسك، وادراً الهم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وابتسم للحياة،  
وابتهج بها من غير إسراف - تزدّد حياتك إشراقاً وقوة، وتشعر بالسرور والسعادة.

قال الشافعي رحمه الله :

سهرت أعين ونامت عيون      في أمور تكون أو لا تكون  
فادراً الهم ما استطعت عن النفس      فس فحُمْلَانُكَ الهمومَ جُنُون  
إن رِبّاً كفاك بالأمس ما كا      ن سيكفيك في غدٍ ما يكون

ومن أعظم ما يعين على طرد الهم توطين النفس على وقوع المكروه ، والبعدُ  
عن تضخيم الأمور ، وتحميلها فوق ما تحتمل ؛ فالحياة مليئة بالأحداث ، حافلة  
بالمواقف ، والإنسان - أياً كان - مُعرَّض لما يكون في هذه الحياة من صحة ومرض ،  
وغنى وفقر ، وسعادة وشقاء ، وفرح وحزن ، وما إلى ذلك من مجرياتها.

والعاقِل هو من يوطن نفسه على كل وارد ، ويستعد لكل آت .  
ولا خير فيمن لا يُوطن نفسه      على نائبات الدهر حين تنوب  
والذي يُلاحظُ أنَّ من الناس من لا يوطن نفسه على وقوع ما يجب أو يكره ؛  
فإذا وقع ما يجب مما لم يكن قدره أشدَّ ، وبَطَر ، وبالغ في الفرح .  
وإذا حصل ما يكره قنط ، وانقبض ، وربما فقد صوابه .

والأدهى من ذلك أن المصيبة من نحو مرض ، أو خسارة ، أو إخفاق ، أو نحو  
ذلك إذا وقعت أحياناً على أحد من أهل بيت من البيوت - قلبت البيت جحيماً  
مُلهباً ؛ فإذا مرض شخص من أهل ذلك البيت مرضاً عضالاً ، أو أصيب أحد من  
أفراده بمصيبة - صاروا جميعاً مرضى ، أو فاقدى التوازن .

ولا ريب أن مشاركة الأهل والأقارب في الأفراح والأتراح مطلب شرعي  
 واجتماعي ، كما أن برود الإحساس ، وفقر المشاعر تجاه الآخرين داء وييل ، يَنِمُّ  
عن أثره قبيحة .

ولكن ذلك لا يعني أن يبالغ المرء في تحميل الأمور فوق ما تحتل؛ بحيث يبالغ في الأسى، والحسرة، والحزن، والحُرقة؛ فيخرج بذلك عن طوره؛ فبدلاً من أن تكون المصيبة واحدة تكون أضعافاً مضاعفة.

فالذي تقتضيه الحكمة أن يشارك المرء إخوانه دون أن يفرط في تضخيم الأمور، ودون أن يعزب عنه رأيه.

ثم إن مما يحسن بنا أن نُذكر من أصيب بمصيبة بذلك المعنى، وألا نحتقر تلك المبادرات، ولو كان المبادر أقل من صاحب الشأن.

ومما يذكر في هذا الصدد أن ابن عباس لما توفي والده العباس -رضي الله عنهما- هابه الناس، ولم يُقدِّم كثير من الناس على تعزيتة، وقيل إنه مكث على ذلك شهراً، حتى أقبل أعرابي، وقال بحضرة ابن عباس:

اصبر تكن بك صابرين فإنما صَبْرُ الرعية عند صَبْرِ الراسِ  
خيرٌ مِنَ العباسِ صبرُك بعده واللهُ خيرٌ منك للعباسِ

فَسُرِّي عن ابن عباس، وأقبل الناس على تعزيتة.

وبالجملة فإذا أصابتك مصيبة في نفسك، أو مالك، أو ولدك، أو أمتك - فاقدرها قدرها، وضعها في نصابها، دون إفراطٍ أو تفريط فيها، فبذلك تحسن التعامل، وتسلم من تبعاتٍ تنال نيلها منك، وتذكر أن القرآن الكريم ما أنزل علينا لنشقى، وإنما أنزل لنسعد؛ فلنأخذ بالأسباب الجالبة للسعادة، ولنأبأ بأنفسنا من كل سبب يجلب لنا الشقاوة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

## ١١- ﴿ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

أما بعد

فقد قال الله - تعالى - في سورة الأحزاب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾.

والحديث ههنا سيكون في مجمله حول هداية قوله - تعالى -: ﴿ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ ففي سورة الأحزاب بعد أن نهى الله المسلمين عما يؤذي النبي ﷺ ورأى بهم أن يكونوا مثل الذين آذوا رسولهم - وجه إليهم بعد ذلك نداء يأمرهم فيه بتقواه في جميع أحوالهم، وندبهم إلى القول السديد.

وابتداء الكلام بنداء الذين آمنوا للاهتمام به، واستجلاب الإصغاء إليه ونداؤهم بالذين آمنوا لما فيه من الإيماء إلى أن الإيمان يقتضي أنهم سيمثلون ما سيؤمرون به؛ ففيه تعريض بأن الذين صدر منهم ما يؤذي النبي ﷺ قصداً ليسوا من المؤمنين في باطن الأمر، ولكنهم منافقون، وتقديم الأمر بالتقوى مشعر بأن ما سيؤمرون به من سديد القول - هو من شعب التقوى كما هو من شعب الإيمان.

فما القول السديد الذي يترتب عليه إصلاح الأعمال، ومغفرة الذنوب، وكونه داخلاً في طاعة الله ورسوله، وما يترتب على تلك الطاعة من الفوز العظيم؟

القول: هو الكلام الذي يصدر من فم الإنسان يعبر عما في نفسه.

والسديد: هو الذي يوافق السداد، والسداد هو الصواب، والحق، ومنه

تسديد السهم نحو الرمية، أي عدم العدول عن سمتها بحيث إذا اندفع أصابها.



فيدخل في القول السديد: ما لا يستطيع حَصْرُهُ من شعب الإيمان القولية، وما يندرج تحتها من الأقوال الواجبة، والأقوال الصالحة.

وأعلى ذلك كلمة التوحيد؛ فهي القول السديد، والكلمة الطيبة، وكلمة السواء، والطيبُ من القول إلى غير ذلك من أسمائها الكثيرة العظيمة.

ويدخل في القول السديد: قراءة القرآن، ورواية حديث الرسول ﷺ.

ويدخل في القول السديد: ذكر الله من تحميد، وتمجيد، وتسبيح، وتكبير، واستغفار، وحوقلة، وبسملة، وصلاة على النبي ﷺ.

ويدخل في القول السديد تعلم العلم، وتعليمه، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل النصح للمسلمين.

ويدخل في القول السديد: إفشاء السلام، وقولك للمؤمن: إني أحبك.

ومن القول السديد: نشرُ أقوال الصحابة، والعلماء، والحكماء، وأئمة الفقه.

ومن القول السديد: الأذان، والإقامة، والدعاء.

ومن القول السديد: لين الكلام، ولطفه في مخاطبة الأنام ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ

حُسْنًا﴾ البقرة: ٨٣.

ومن القول السديد: كرم القول للوالدين، وخفض الجناح أثناء الحديث

معهما ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَّانِي صَغِيرًا﴾ (٢٤) الإسراء.

ومن القول السديد: ملاطفة أولي القربى، واليتامى، والمساكين إذا حضروا

قسمة الميراث، قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٨) النساء.

ثم قال - تعالى - مبيناً أن مصير ذرية الأغنياء من بعدهم ربما يكون كمصير أولئك اليتامى والمساكين: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً﴾ (٩).

ومن القول السديد: الدعوة إلى الله، وإصلاح ذات البين، واستعمال العبارات المأنوسة اللاتقة البعيدة عن هُجر القول ومرذوله.

هذا وإن الأمر بالقول السديد يرشد إلى تعديل المخاطبات؛ فالمخاطبات في كل أمة تَنِمُّ عما يحمله أهل تلك الأمة من ذوق، وثقافة، وعقول؛ ذلك أن الألسنة مغارفُ القلوب؛ فإذا كانت تلك القلوب منطوية على العدل، والخير، والإصلاح، والسماحة ونحوها - كانت المخاطبات تحمل تلك المعاني السامية. وإذا كانت الأخرى فكل إناء بما فيه ينضح.

لذا كان حرياً بمن له تأثير سواء كان معلماً، أو داعيةً، أو كبير قوم، أو وجية طائفة، أو مُقَدِّمَ صَحْبٍ - أن يُعْنَى بمخاطباته، وألفاظه، وأن يستحضر أن لذلك أبلغ الأثر في نفوس أتباعه، وتصرفاتهم؛ فالذي يُكثِرُ من الأقوال المنهضة للهمة، المشجعة على الخير، الحاملة على التفاؤل، الجامعة للقلوب، المنفرة من الشر - تجد جُلَّاسَه، ومُحِبِّيه، ومرتادي ناديه يحملون تلك المعاني، ويتمثلونها في أنفسهم، وينشرونها في أوساطهم.

والذي يُكثِرُ من الأحاديث المثبِّطة عن الخير، الجالبة لليأس، المفرقة بين الناس - يكون أصحابه على هذا النهج.

والذي يكثر من ذكر النساء، أو الأطعمة، أو الأحاديث التي لا تسمن ولا تغني من جوع - يكون لجلسائه كِفْلٌ من ذلك.

والذي يُكثر من الغرائب، ويغرب في العجائب، ويتسقط الأخبار التي لا زمام لها ولا خطام - يكون لمريديه نصيب من ذلك المرض.  
والذي يسود مجلسه الجدال بالباطل، ويكثر فيه اللغط وسوء اللفظ - يكون أصحابه على تلك الشاكلة.

وقس على هذه النبذة ما شئت، والواقع سيصدقك.  
وهكذا يتبين أن حسنَ المخاطبة أثرٌ من آثارِ فقه النفس، وسلامة الذوق، وتبلي الهدف، وتبعدِ الهمة، وذلك داخل في القول السديد.  
كما أن سوءَ المخاطبة أثرٌ من آثار الرقاعة، والصفاقة، وقلة الذوق، وسقوط الهمة، ومنافاة القول السديد.

ومن القول السديد: إلباس المعاني أثواباً حسنة، فلقد كان العلماء، وأئمة الدين يُعنون بذلك، ويُربُّون من تحت أيديهم بهذا الأدب القرآني.  
جاء في كتاب فتح المغيث للسخاوي رحمته الله ٣٧١/١ ما نصه: «روينا عن المزني قال: سمعني الشافعي يوماً وأنا أقول: فلان كذاب.

فقال: يا أبا إبراهيم! اكسُ ألفاظك أحسنها، لا تقل: فلان كذاب، ولكن قل: حديثه ليس بشيء».

ففي هذا الخبر يرشد الإمامُ الحَبْرُ الشافعي رحمته الله إلى مسألة في الذوق في الكلام، ويلفت الأنظار إلى أن يُلْبَسَ الإنسانُ ألفاظه أحسنَ الألبسة، فيصوغها بأسلوب رائع يجعلها خفيفةً على السمع، سهلة النفوذ إلى القلب؛ فقد يكون المعنى المراد إيصاله واحداً، ويكون ما بين تعبير وتعبير كما بين ذات الرجوع وذات الصدع.

فقد تكون المعاني حاضرةً في نفس المتكلم؛ فإذا عرضها في أسلوب باهتٍ أو

مُنْفَرٍ لَمْ تَلَقَ القبول، بخلاف ما إذا عرضها في أسلوب بارع؛ فإنها حينئذٍ تقع مَوْقِعَ الإعجاب، حتى لكانها معانٍ جديدةً لم يسبق للسامع لها سابقٌ علمٌ بها. ومن كان كذلك حاز المكانةَ العَلِيَّةَ، وصار له المحلُّ الأرفعُ في القلوب.

ومن القول السديد صدق اللهجة، وأن تكون مع ذلك خفيفة الوقع على الأسماع والقلوب؛ إذ ليس من شرط الصراحةِ الصفاقةُ، ولا من شرط اللطافةِ النفاقُ؛ فقد يكون المرء صريحاً لطيفاً في حدود اللباقة واللياقة بعيداً عن الإسفاف، والنفاق، والصفاقة - كما في وصية الإمام الشافعي الآنفه لتلميذه المزي -.

ولهذا كانت عبارات الإمام البخاري في الجرح والتعديل على درجة عالية من الأدب، وسمو العبارة مع أن كتابه أصح كتاب بعد كتاب الله - عز وجل - . فلقد كانت عباراته مضرب المثل في السمو والأدب، كقوله في المجروح: فيه نظر، تركوه، سكتوا عنه، ونحو ذلك.

وبهذا يتبين لنا أهمية جمال العبارة، وذوقها، وخطأ مَنْ يتوهم أنه إذا كان صريحاً فلا بأس عليه أن يُلِيس عباراته أي ثوب شاء.

وهكذا يتبين لنا أن القول السديد شامل لأفراد كثيرة، وأنه سبب لصلاح الأعمال، ومغفرة الذنوب، وكسب القلوب، ووأد العداوات. كما أن الإخلال به سبب لفساد الأعمال، وعدم قبولها، وعدم ترتب آثارها عليها.

وهذا شيء مما يوحى به قوله - تعالى - : ﴿ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ . جعلنا الله من أهل التقوى، والقول السديد، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

## ١٢- ﴿أَوْ إِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ﴾

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه  
أما بعد

فإن الحديث ههنا سيدور حول قوله - تعالى - : ﴿أَوْ إِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ .  
فهذه الآية تحث على إصلاح ذات البين؛ تلك الخصلة التي تعد شعبة إيمانية،  
وشرعة إسلامية، تُستل بها السخائم، وتصفو القلوب، وتحمد نيران الفتن.  
قال الله - عز وجل - منوهاً بتلك الخصلة: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا  
مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ  
اللَّهِ فَسَوْفَ نُوْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء: ١١٤.

ولكن هذه الخصلة الكريمة، والقرية العظيمة تحتاج إلى ممارسة ودربة، وألمعية  
مهذبة، كما تحتاج إلى نية صالحة، وقدرة على حسن الأخذ بالأسباب، ومعرفة  
لدخول البيوت من الأبواب؛ فهذه - على سبيل الإجمال - أسس لا بد للمُصلح  
من مراعاتها، والأخذ بها حال خوضه لغمار إصلاح ذات البين.

أما تفصيل ذلك فيحتاج إلى بسط، والمقام لا يسمح إلا بأقل القليل.  
وفيما يلي معالم باصرة في هذه الشأن هي أشبه بالإيضاح للأسس الماضية  
المجملة، فمن ذلك احتساب الأجر: - كما قال - عز وجل - ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ  
ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُوْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء: ١١٤.

فما ظنك بعمل صالح رتب الله عليه هذا الثواب الجزيل؟

إنه عملٌ عظيمٌ وله - في نظر الشارع - مقامٌ جليلٌ؛ فاحتسابُ ذلك على الله  
- عز وجل - يبعث الهمم، ويقود إلى المسارعة والمسابقة في ذلك السبيل، ويمد

القائم به بالصبر، والروح، والطمأنينة.

ثم إن التحليّ بالحلم وسعة البال من أعظم ما ينبغي للمصلح؛ لأنه - في الأغلب - سيدخل بين أطراف يَقلُّ عندها العدل والعقل، ويفشو فيها الظلم والجهل؛ فيحتاج - إذاً - إلى ضبط النفس، وسعة الصدر، واحتمال ما يصدر من سفه، وتطاول، وسوء فهم، وترديد كلام، وإطالة في المقدمات.

فلا يحسن به أن يكون ضيق الصدر، قليل الصبر. وليعلم أن مهمته مرهقة؛ فليوطن نفسه على عقبات الطريق، وليداو كلوم النفوس بالهدوء، وسعة الصدر، ولين الجانب، ومقابلة الإساءة بالإحسان؛ فإن تلك الصفات رقية النفوس الشرسة، ويلسم الجراح الغائرة.

ولا بد للمصلح إذا أراد الدخول في قضية ما - أن يكون على تصور تام لها؛ فالحكم على الشيء فرع عن تصوره؛ إذ كيف يدخل في مجاهل، ومفاوز لا يدرك غورها، ولا يسبر مسالكها؟

فلا بد - إذاً - من تصور القضية، ومعرفة أطرافها، وأحوال أصحابها، وما يكتنفها من غموض، وظروف.

فإذا تصور المصلح القضية تماماً نظر في إمكان الدخول فيها، وجدوى السعي في حلها.

ثم إن المصلح مهما بلغ الكياسة والفطنة، والسياسة، وحسن التصرف - فإنه لا يستغني عن توفيق الله ولطفه، وإعانتته؛ فليلجأ المصلح إلى ربه وليسأله التوفيق، والتسديد، واللطف، فإنه - عز وجل - يجيب من دعاه، ويعين من استعان به ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر: ٦٠.

ومما يحسن بالمصلح المحافظة على أسرار المتخاصمين ، فذلك من الأخلاق التي يجب على المصلح أن يأخذ بها ، وألا يسمح لنفسه بالتفريط في شأنها .  
أما إذا احتاج إلى إفشاء شيء من ذلك لمن يعنيه الأمر ، أو لمن يمكن الإفادة من رأيه - فذلك داخل في الإصلاح .

كما يحسن بالمصلح أن يتجنب اليأس ، وأن يستعين بمن يفيد ، وأن يراعي الذوق العام ، وأن يحسن الاستماع من جميع الأطراف ، وأن يلزم الوضوح والصراحة ، وحسن العبارة ، وتجنب الجفاء ، وأن يذكر الخصوم بالعاقبة ، وأن يعطيهم الفرصة الكافية للتفكير والمراجعة ، وأن يحذر من إلحاق الضرر بأيٍّ من الخصوم ، وليخطر بباله أيّ مفاجأة تحصل من أي من الخصوم ، وليستجمع مواهبه ، وإمكاناته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

كما يحسن به أن يحدد أطراف القضية ، وإن كانوا كثيرين فليطلب منهم رأساً يفاوضه ، حتى لا يتشعب عليه أمره ، ولأجل ألا يضرب كلامه ببعض .  
ثم ليكون ذلك الرأس المختار كاملاً حازماً كريماً ما أمكن .

وأخيراً فإنه يحسن بالمصلح ألا يدخل في قضية بشرط النجاح ، بل عليك -أيها المصلح- بذل الوسع ، واستنفاد الطاقة ، ثم بعد ذلك وطن نفسك على أن محاولاتك ربما لا تفلح ؛ فلا يكبر عليك ذلك ، واعلم بأنك مأجور مثاب ، وليس من شرط الإصلاح إدراك النجاح ، وليكن شعارك ﴿ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ هود : ٨٨ .

### ١٣- ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد  
فإن الحديث ههنا سيدور حول هداية قوله - تعالى - : ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا  
مَعْرُوفًا﴾ لقمان: ١٥.

وهذا الجزء من الآية مسبوق بقوله - تعالى - : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ  
حَمَلَتُهُ أُمَّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ  
(١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا  
وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ  
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)﴾.

ومعنى الآيتين واضح ففيهما بيان منزلة الوالدين ، والحث على القيام  
بأمرهما ، وحسن الرعاية لهما ، وطاعتهما بالمعروف.

أما الوقفة فستكون عند قوله - تعالى - : ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ففي  
ذلك معنى بديع ، وهو أن التعبير بهذه اللفظة ﴿وَصَاحِبُهُمَا﴾ من أطف ما  
يكون في الحث على بر الوالدين ؛ ذلك أن الصحبة في هذه الآية تقتضي الملازمة ،  
ومن شأن الملازمة الدوام على قلب الأحوال ؛ فالصحبة الطويلة يعترئها الملل ،  
والفتور ؛ فإذا استحضر الولد هذا الإرشاد الإلهي علم أن لوالديه حقاً عظيماً ،  
فيلزم صحبتتهما - وهما أحق الناس بحسن صحابته - بالمعروف.

وذلك يشمل الملاطفة ، والمشاورة ، والمدارة.

ويشمل كذلك مراعاة أدب المحادثة مع الوالدين ؛ لأن طول الصحبة يفضي إلى



الملل من جرّاء تكرار الأحاديث، والوقائع؛ فيسمعها الولد بروايات كثيرة متنوعة، مما يضجره، ويَجْلِبُ له السّامة؛ فإذا لزم حُسْنُ الصّحبة لم يظهر الملالة سواء خَصَّهُ الوالدُ بالحديث، أو كان حاضراً مع أناس يتحدث إليهم الوالد، حتى لو كان الحديث معلوماً للولد، مكروراً على سمعه.

ويشمل كذلك الإكرام بالمال خصوصاً إذا كان الوالد محتاجاً، فكم من الأولاد مَنْ يُقَصِّرُ في هذا الحق إما تكاسلاً، أو غفلةً، أو بخلاً.

وكم من الأولاد من يقول: إن أبي، أو أمي لا يحتاجان إلى شيء؛ فيَحْرِمُ نفسه من بركة الإنفاق على الوالدين.

وكم من الأولاد من يقول: إن إخواني أو أخواتي يَرِفُدُون والديّ بما يحتاجان إليه؛ فليسا - إذا - في حاجة إلي.

وربما قال ذلك جميع الأولاد، فاعتمد كل واحد منهم على الآخر، فَخَلَّتْ يد الوالدين من أي معونة من الأولاد.

فحري بالولد ألا ينسى نصيبه من رفق والديه، ولو كانا غير محتاجين فضلاً عن كونهما كذلك.

وجدير به أن يبادر إلى ذلك ولو كان إخوانه يقومون به ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

ومن حسن الصّحبة أن يعين والده على البر والصدقات والإحسان؛ فيحدث أحياناً أن يكون الوالد ثرياً محسناً، ولكنه لا يوفق بأولاد يعينونه على البر والإحسان، بل ربما قطعوا عليه الطريق، وخذلوه عن الخير؛ فإذا همّ بالمعروف قالوا له: مهلاً؛ إما خوفاً من ضياع مال والدهم - كما يزعمون - وإما رغبة في

زيادة الميراث ، أو شحاً بالخير ، أو غير ذلك ؛ فحقيق على الأولاد ألا يقفوا حجر عثرة في طريق والدهم ، بل عليهم أن يعينوه على الخير .

ومن صور الصحبة السفر مع الوالدين .

ومن صورها الرحلة معهما ؛ فماذا يضير الابن - على سبيل المثال - إذا جاء الربيع ، أو نزل مطر أن يصطحب والده أو والدته أو كليهما ليريا المطر ، ويمتعا ناظرهما برؤية جمال الطبيعة ؟

أليس يقضي الوقت الطويل في صحبة الأصدقاء والمعارف ؟

ومن صور المصاحبة في المعروف القيام بإكرام ضيف الوالد ، والحرص على راحته حال قდوم الضيف .

ومن ذلك صحبة الوالد إذا طلب منك الصحبة لأي مكان ، أو أناس ما لم يكن في ذلك مآثم .

ومن ذلك أن تُعرّف أصحابك على والدك ، حتى يطمئن على سيرك ، ويأنس بأصحابك إذا زاروك .

ومن ذلك قضاء حوائج الوالد - أباً أو أمّاً - بكل ارتياح ونشاط وتدفّع .

ومن ذلك ملاحظته في علاجه ، ومراجعاته ، ومرافقته في المستشفى إن احتاج إلى ذلك .

ومن ذلك ألا يتأفف الولد إذا أمره والده دون إخوانه ، على حد قول الأول :

وإذا تكون ملامة أدعى لها وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

بل عليه أن يفرح بذلك ، بل يجمل به أن يبادر إلى التنفيذ ولو لم يؤمر .

ويحسن به أن يتحمل جفوة الوالد ، وقسوته ، وتغير مزاجه .

وجماع حسن الصحبة للوالدين أن يحرص الولد على إدخال السرور عليهما، وأن يبتعد عن كل ما يكدر خاطرهما.

فهذه إشارات مما حملته الآية الكريمة من معان، أما تفاصيل الحديث عن البر فليس هذا مجالها، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

## ١٤- ﴿هَارُونَ أَخِي﴾

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه  
ومن والاه أما بعد

فقد قال الله - عز وجل - في سورة طه عن موسى - عليه السلام - : ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾ طه.

والحديث ههنا حول قوله - تعالى - : ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠)﴾.

أي معيناً يعاونني، ويؤازرنني، وسأل موسى ربه أن يكون ذلك الوزير من أهله، لأنه من باب البر، وأحق الناس ببر الإنسان قرابته، ثم عيَّنه بسؤاله، فقال: ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ ❖ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿أي قَوْنِي وشد ظهري به. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أي في النبوة، بأن تجعله نبياً رسولاً كما جعلتني، فأجاب الله دعاءه، وقال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾. وقال في آية أخرى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾.

ففي هذه الآية إحسان من موسى لأخيه هارون - عليهما السلام - ورغبة منه أن يشترك معه أخوه في تبليغ الدعوة، والتعاون على البر والتقوى.

ولا ريب أن الاشتراك بالخير من أعظم أسباب مضاعفة الثواب، ونيل المراد؛ لما في ذلك من القوة، وشد الأزر.

وهذا ما حصل لموسى - عليه السلام - ولهذا قيل: إن هذه أعظم شفاعة في تاريخ البشر؛ فهذا هو معنى الآية.

وكما أن هذا هو معنى الآية فهي تشير - كذلك - تشير إلى ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الإخوة من المحبة، والتآزر، والتعاون.

ولهذا سئل حكيم: أيهما أحبُّ إليك: أخوك أو صديقك؟ فقال: «أخي إذا كان صديقي».

فهذه الإجابة الحكيمة تشير إلى أنه ينبغي أن يكون الأخُ صديقاً لأخيه، دون أن يكفي برابطة الأخوة وإن كانت من أعظم الروابط.

والتأملُ في أحوال الناس، وما يكتب في العلاقات عموماً يلحظ فتوراً في علاقات الإخوة فيما بينهم، وقلةً في الكتابات التي تتعرض لهذا النوع من العلاقات.

فالإخوة - في كثير من الأحيان - يميلون إلى طابع الرسمية في علاقاتهم، وربما مالوا إلى جانب الندية، وربما كان بعضهم يَحْقِرُ بعضاً، ولا يقضيه حقَّ الاحترام والتقدير؛ فيخسر الإخوةُ خسارةً فادحة؛ إذ يفوتهم الأجرُ والتآزرُ، والتعاونُ على مرافق الحياة.

وفوتهم - أيضاً - جوانبُ كثيرةٌ من السعادة والصدقة المؤسسة على الثقة والرابطة القوية.

وَيُعْرِضُونَ أَسْرَهُمْ، ووالديهم، وأولادهم لنكسات وعداوات ربما أكلت الأخضر واليابس.

والذي ينبغي في العلاقات بين الإخوة أن تقوم على الإيثار، والمحبة، والصفاء، وتدبر العواقب، وتقدير الصغير للكبير، ورحمة الكبير بالصغير، وإنزال ذي المنزلة مكانه اللائق به، وتشجيع المتباطئ والمتكاسل حتى ينهض بنفسه، وأن يكمل بعضهم بعضاً حتى يسعدوا أنفسهم، وأسرهم، وألا يجعلوا لقاتل فيهم مقالاً.

وإذا قُدِّرَ للإنسان أن يكون ذا شهرة، أو علم، أو جاه، أو مال، أو نحو ذلك - فيحسن به ألا ينسى نصيب إخوانه منه، وألا يتناول عليهم.

كما ينبغي لمن كان لهم أخٌ قد نال ما نال مما ذكر - أن يعينوه على نفسه، وألا يقفوا أمام طموحاته، وأن يحملوا عنه ما يجب عليه من نحو بر الوالدين، وما جرى مجرى ذلك، فيكونوا بذلك شركاء له في الأجر والنجاح.

ومما يعين على شيوع روح الصفاء بين الإخوة أن يبادروا إلى قسمة الميراث؛ لكي يظفر كل طرف بنصيبه، وليقطعوا دابر الفتنة وسوء الظن.

ومما يصفى الودَّ بين الإخوة أن يحرصوا على الوثام والاتفاق حال الشراكة؛ فإذا كان بينهم شراكة في نحو تجارة أو غيرها - فليحرصوا على ذلك، وعلى أن تسود بينهم روحُ الإيثار والمودة، والشورى، والرحمة، والصدق، والأمانة، وحسن الظن.

وأن يحب كل واحدٍ منهم لأخيه ما يحبه لنفسه، وأن يعرف كل طرف ما له وما عليه.

كما يحسن بهم أن يناقشوا المشكلاتِ بمنتهى الصراحة، والوضوح، وأن يحرصوا على التفاني والإخلاص في العمل.

كما يجملُ بهم أن يكتبوا ما يتفقون عليه إذا كان الأمر يستدعي ذلك. فإذا ساروا على تلك الطريقة حلَّت فيهم الرحمة، وسادت بينهم المودة، ونزلت عليهم بركات الشركة.

ومن الأمور التي تبقي على المودة بين الإخوة لزومُ التواضع، ولينُ الجانب، والتغاضي، والتغافل، والصفح، ونسيانُ المعايب، وتركُ المنة على الإخوة، والبعدُ عن مطالبتهم بالمثل، وتوطيئُ النفس على الرضا بالقليل مما يأتي منهم، ومراعاةُ أحوالهم، وطبائعهم، وتجنبُ الشدة في العتاب حال وقوع الخطأ، وتجنبُ الخصام، والجدال العقيم، والمبادرة بالهدية والزيارة إن حصل خلاف. ومن ذلك أن يستحضر المرء أن إخوانه لحمه منه؛ فلا بد له منهم، ولا فكاك له عنهم.

ومن ذلك أن يستحضر المرء أن معاداة الإخوة شرٌّ وبلاءٌ؛ فالرابعُ فيها خاسرٌ، والمنتصرُ مهزومٌ.

ومن ذلك أن يربيَ الإخوةَ أولادهم على احترام أعمامهم، وتوقيرهم. هذا وقد أَرانا العيان نماذجَ رائعةً، ومثلاً علياً من صداقات الإخوة، وقيامهم بالحقوق ما جعلهم مضرب مثَل، وموضع أسوة.

وبعد، فهذه إلماحات وإشارات من قوله - تعالى -: ﴿هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١)﴾.

وصلَّى الله وسلم على نبينا محمد.

## ١٥- ﴿أَوْ تَسْرِحْ بِإِحْسَانٍ﴾ ، ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

أما بعد

فإن الحديث ههنا سيدور حول آيتين من كتاب الله - عز وجل - إحداهما قوله - تعالى -: ﴿فَأَمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِحْ بِإِحْسَانٍ﴾ البقرة: ٢٢٩ ، والثانية قوله - تعالى -: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ النساء: ١٢٩ .

أما الوقفة الأولى وهي قوله - تعالى -: ﴿أَوْ تَسْرِحْ بِإِحْسَانٍ﴾ فهي في شأن النساء ، وإمساكنهن بالمعروف ، أو تسريحهن بإحسان .

ولكن ، لا يبعد أن يتعدى ذلك المعنى إلى معانٍ أخرى ، فَيَشْمَلُ كُلَّ مَنْ يُتَعَامَلُ معهم من الناس ؛ فمن ذلك أن يَعْمَلَ لديك موظف في شركة ، أو مدرسة ، أو أي قطاع ؛ فيمكثَ عندك فترةً من الزمن طالت أو قصرت ، ثم بعد ذلك تقتضي مصلحته أن ينتقل إلى ميدان أو مجال آخر ، وهذا من حقه مالم يُخْلَ بِشَرَطٍ من الشروط .

فهل يعني ذلك أن تَصْرِمَ حبالَ الودِّ معه ؟ وهل يلزم أن تسيءَ إليه ، وتفسرَ انتقاله بقلّة المروءة ، ونكران الجميل ؛ إذ كيف يزهد بك ، وقد أحسنت إليه ، وارتقيت بكفاءته ؟

وهل يلزم من الافتراق ، والانتقال الذي تقتضيه سُنَّةُ الحياة وطبيعة العمل - أن يكون ذريعةً لنشر الغسيل ، ونيل كل واحد من الآخر ؟

الجواب لا ؛ فأهل الكرم ، وأولو الألباب ، وذوو المروءات يربأون بأنفسهم عن



تلك الخُطَّة؛ فيحسنون إلى من تحت أيديهم، ويقضونهم حقهم كاملاً غير منقوص، ولا يرون أنهم حكرٌ عليهم لا يفارقونهم إلا إلى القبور.

فإذا قضى الله بالفراق، أو الانتقال - أحسنوا التسريح والتوديع، وأشعروا من يعمل معهم ويريد الانتقال عنهم بمحبتهم له، وحرصهم على مصلحته؛ فينتقل صاحبهم بنفس رضية، وذكريات جميلة، ودعوات صادقة، وصفح عن الزلات، وتذكر للحسنات.

بل ربما كان ذلك دافعاً له للعدول عن رغبته، أو الرجوع مرة أخرى إذا الفرصة واثته.

وبذلك تطيب النفوس، ويحفظ الود، ولا ينسى الفضل.

أما إذا كانت الأخرى فإن الخسارة فادحة للطرفين، سواء كانت مالية، أو معنوية، أو كليهما.

أما الوقفة الثانية فتدور حول قوله - تعالى - في شأن المرأة المعلقة التي يهجرها زوجها هجراً طويلاً: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي: لا متزوجة ولا مطلقة؛ وذلك لما في التعليق من المفاصد الكثيرة.

وفي هذا إشارة إلى المبادرة إلى الحسم، وإصلاح الشأن إما بالوفاق، أو الفراق، بعد أن تُتخذ الوسائل المشروعة.

ولعل ذلك المعنى لا يقف عند مسألة الزوجية، بل ربما يتعداه إلى أمور كثيرة من شأنها أن تزيد المشكلات تعقيداً، أو تنشئها إن لم تكن موجودة أصلاً.

وما سبب ذلك إلا التعليق الذي لا مسوغ له؛ فتجد أن أمراً ما بين اثنين كاتفاقٍ في شأنٍ، أو موعد، ويكون عند أحدهما القرار والحسم، والآخر ينتظر

ما يُسفر عنه الأمر؛ فيتباطئ الأول، ويلتقي صاحبه دون أن يشعره بما كان، أو بما سيكون، وربما مضت الشهور، أو السنين والحال كما هي.

وقل مثل ذلك في شأن قضايا الميراث، والنزاعات حول العقار أو مجاري السيول، أو المشكلات بين الأقارب.

فاللائق في مثل هذه الأحوال التي لا يسوغ فيها التروي أن تحسم الأمور، وألا تظل معلقة؛ حتى يعرف كل طرف ما له وما عليه، ولأجل ألا يبقى في النفوس أثرٌ يزداد مع الأيام سوءاً.

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد.

## ١٦- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله صحبه ومن وآله،  
أما بعد:

فقد قال الله -عز وجل- في وصف نبيه ﷺ وفي معرض الامتنان على الأمة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾ آل عمران.

والحديث ههنا سيكون حول هداية هذه الآية، وما يدور في فلكها من الآيات التي تتحدث عن كون النبي ﷺ مفطوراً على الرحمة.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله في تفسير الآية السابقة: «والدين هنا مجاز في سعة الخلق مع أمة الدعوة والمسلمين، وفي الصفح عن جفاء المشركين، وإقالة العثرات».

وقال رحمه الله: «أرسل محمد ﷺ مفطوراً على الرحمة؛ فكان لينه رحمةً من الله بالأمة في تنفيذ شريعته بدون تساهل وبرفق وإعانة على تحصيلها؛ فلذلك جعل لينه مصاحباً لرحمة من الله أودعها الله فيه؛ إذ هو قد بعث للناس كافة، ولكن اختار الله أن تكون دعوته بين العرب أول شيء لحكمة أرادها الله -تعالى- في أن يكون العرب هم مُبَلِّغُ الشريعة للعالم».

والعرب أمة عرفت بالأنفة، وإباء الضيم، وسلامة الفطرة، وسرعة الفهم. وهم المتلقون الأولون للدين؛ فلم تكن تليق بهم الشدة والغلظة، ولكنهم محتاجون إلى استئزال طائرهم في تبليغ الشريعة لهم؛ ليتجنبوا بذلك المكابرة التي

هي الحائل الوحيد بينهم وبين الإذعان إلى الحق.

وورد أن صفح النبي ﷺ وعفوه ورحمته كان سبباً في دخول كثير في الإسلام، كما ذكر بعض ذلك عياض في كتاب الشفا».

وقال الله - عز وجل - مِيناً شَمُولُ الرَّحْمَةِ لِلْعَالَمِينَ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

فجاءت هذه الآية مؤكدة للرحمة بأسلوب من أقوى أساليب التأكيد، ألا وهو أسلوب الحصر، وأدائه هنا النفي والاستثناء؛ فدل ذلك على أن الرحمة عامة.

قال ابن القيم رحمه الله: «وأصح القولين في قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ الأنبياء: ١٠٧، أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه المحاربون له فالذين عُجِّلَ قَتْلُهُمْ وموتهم خيرٌ لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادةٌ في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء؛ فتعجيلُ موتهم خيرٌ لهم من طول أعمارهم في الكفر.

وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقلُّ شراً بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقنُ دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها، وجريانُ أحكام المسلمين عليهم من التوارث وغيرها.

وأما الأمم النائية عنه فإن الله - سبحانه - رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض؛ فأصاب كلَّ العالمين النفعُ برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكلٍّ أحدٍ، لكنَّ المؤمنين قبلوا هذه الرحمة؛ فانتفعوا بها دنياً وأخرى، والكفار ردوها؛ فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة، لكن لم يقبلوها كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإن لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواءً لهذا المرض.

وقال الشيخ ابن عاشور رحمته الله في تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: «فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم. ومزيتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين».

إلى أن قال رحمته الله: «وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة، والثاني إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته.

فأما المظهر الأول: فقد قال فيه أبو بكر محمد بن طاهر القيسي الإشبيليُّ أحد تلامذة أبي علي الغسانيِّ ومن أجاز لهم أبو الوليد الباجيُّ من رجال القرن الخامس: «زَيَّنَ اللهُ محمداً صلى الله عليه وسلم بزينة الرحمة؛ فكان كونه رحمة، وجميع شمائله رحمة وصفاته رحمة على الخلق» ١- هـ.

ذكره عنه عياضٌ في الشفاء، قلت: يعني أن محمداً صلى الله عليه وسلم فُطِرَ على خلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة؛ لتكون مناسبة بين روحه الزكية وبين ما يُلقى إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة حتى يكون تَلَقُّيهِ الشريعة عن انشراح نفس أن يجد ما يوحى به إليه ملائماً رغبته وخلقته، قالت عائشة: «كان خلقه القرآن» رواه مسلم.

ولهذا خص الله محمداً صلى الله عليه وسلم في هذه السورة بوصف الرحمة، ولم يصف به غيره من الأنبياء، وكذلك في القرآن كله، قال -تعالى-: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ

أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿التوبة: ١٢٨﴾ .  
 وقال - تعالى - : ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لَنَا رَحْمَةٌ لَكُنَّا أَكْثَرُ عَلَيْهِمْ﴾ .  
 جبلك عليها ، وفطرك بها ، فكنت لهم لينا .  
 وفي حديث مسلم : أن رسول الله لما شُجَّ وجهه يوم أحدٍ شق ذلك على  
 أصحابه فقالوا : لو دعوت عليهم فقال : «إني لم أبعث لعناً ، وإنما بعثت رحمة» .  
 وهكذا يتبين لنا أن معنى قوله - تعالى - : ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لَنَا رَحْمَةٌ لَكُنَّا أَكْثَرُ عَلَيْهِمْ﴾ .  
 ومعنى كونه ﷺ ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ .  
 اللهم ارزقنا حب نبيك محمد ﷺ وحسن اتباعه ، والحمد لله رب العالمين .

## ١٧- تفسحوا يفسح الله لكم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد  
فهذه وقفة مع قوله - تعالى - : ﴿ تَفْسَحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ وما تحمله من هداية ، وتشير إليه من إرشاد؛ فالتفسح في المجالس خلق عظيم ، ومسلك نبيل ، وقلة التفسح فيها خلق ذميم ، ومسلك شائن ، فهو ناتج عن ضيق النفس ، وحب الاستئثار ، وقلة المبالاة في الآخرين .  
فهناك من إذا جلس مجلساً أخذ فيه مكاناً واسعاً؛ لأجل أن ينعم بالراحة ، فيسلم من المضايقة .

بل إن بعضهم قد يُوسَّع له في المجلس ، فيأتي ويترع ، فيأخذ مساحة واسعة في المجلس ، بل ربما لا يرضى أن يأتي أحد بعد ذلك بجانبه .

قال بعض الحكماء : «رجلان ظالمان يأخذان غير حقهما : رجل وُسَّعَ له في مجلس ضيقٍ فترَّعَ وتفتَّحَ ، ورجل أهديت له نصيحة فجعلها دُبّاً» .

ولهذا أدبنا الله - عز وجل - بأن نتفسح في المجالس ؛ لما في ذلك من زرع للمودة ، وتوثيق لعرى الأخوة ، وتخلُّص من الأخلاق الذميمة .

قال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفْسَحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ المجادلة : ١١ .

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمته الله عن هذه الآية : « هذا أدب من الله لعباده إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم ، واحتاج بعضهم ، أو بعض

القادمين للتفسخ له في المجلس - فإن من الأدب أن يفسحوا له؛ تحصيلاً لهذا المقصود.

وليس ذلك بضار للفاسح شيئاً، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه. والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح لأخيه فسح الله له، ومن وسع لأخيه وسع الله عليه اهـ.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مما يُصَفِّي لك ودَّ أخيك أن تبدأ بالسلام إذا لقيته، وأن تدعوه بأحب الأسماء إليه، وأن توسع له في المجلس». وقال الأصمعي: «كان الأحنف إذا أتاه إنسان وسَّعَ له، فإن لم يجد موضعاً تحرك؛ ليريه أنه يوسع له».

ولعلك أيها القارئ الكريم بعد ذلك ترجع البصر كرتين، وتأمل الآية السابقة، وهي قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

فسترى فيها عجباً، وتأمل ذلك في نفسك عندما تكون في مكان ما، إما في مسجد وخصوصاً المسجد الحرام، أو المسجد النبوي وَقْتَ الزحام، أو في مكان عام يجتمع فيه جمهور من الناس، ويَضِيقُ عليهم ذلك المكان، ثم أقبل قادم، وصار يلتفت يمنة ويسرة يبحث عن مكان يجلس فيه، ثم تكرمت، وتحفزت، وناديته، وأجلسته بجانبك، تأمل كيف فرحه وسروره، واغبطاه بذلك، وتأمل أثر ذلك في نفسك، فسترى أن صدرك ينشرح، ويتسع، وسترى أساريرك تتبلج، بل سيلقى ذلك التصرف النبيل قبولاً وارتياحاً ممن يراه؛ وربما اقتدوا بك، فصار لك أجرهم.

وقل مثل ذلك إذا كنت تقود سيارتك في طريق مزدحم، ثم أقبل شخص



بسيارته يريدُ فُرْجَةً يَنْصُ من خلالها، ثم فسحت له الطريق، وآثرته بذلك؛ تأمل حالك، وهو يبتسم في وجهك، ويتطلق لك، ويرفع يده مسلماً عليك شاكراً داعياً لك.

وانظر- في مقابل ذلك- إذا قطبت في وجهه، وتفتحت في مجلسك، أو لم تتح له فرصة المرور بسيارته؛ انظر إلى صدرك كيف يكون في تلك الحال، وتأمل تقاسيم وجهك حينئذ.

لا شك أنك ستشعر بانقباض صدر، واكفهرار جبين، وسرعة ثورة؛ فهذا سر من أسرار تلك الآية الكريمة العظيمة.

ولا يبعد أن يدخل في إشارات تلك الآية فسحُ المجال للمتحدث، وتركُ الاستئثار بالحديث في المجلس، والبعدُ عن مقاطعة من يشرع بحديث، أو تكذيبه، أو إكمال كلامه؛ فلعل ذلك كله داخل في مدلول الآية التي تُشير إلى الأخذ بالإيثار، وترك الاستئثار.

جعلنا الله ممن يفسحون لإخوانهم، ويحبون لهم ما يحبون لأنفسهم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

## ١٨- ﴿فَانْذِرْهُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه  
ومن والاه أما بعد

فإن الحديث ههنا سيدور حول قوله - تعالى - : ﴿فَانْذِرْهُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ .  
هذا العنوان جزء من آية في سورة الأنفال وهي قول الله - تعالى - : ﴿وَأَمَّا  
تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)﴾ .  
وهذه الآية تشتمل على حكم المعاملة لمن تلوح منهم بوارق الغدر، بحيث  
يبدو من أعمالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بذلك.  
وقوله : ﴿فَانْذِرْهُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي اردد عليهم عهدهم رداً واضحاً علناً  
مكشوفاً؛ حتى يستوي عِلْمُكَ، وَعِلْمُهُمْ بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم، أو  
تسعى في شيء مما مَنَعَهُ مُوجِبُ العهد حتى تخبرهم بذلك.  
هذا هو معنى الآية كما يقول المفسرون:

وكما أن هذا هو معناها فهي - كذلك - تشير إلى ما هو دون ذلك مما يجري في  
العلاقات العامة؛ إذ كثير من الناس يشكون مِنْ تَقَلُّبِ أصحابهم، وتلَوُّنِ أهل  
ودِّهم؛ ومبعثُ الشكوى أنهم يقولون: لنا أصحاب نحن وإياهم على خير ما  
يرام، وفجأة نراهم وقد صرموا حبالَ الودِّ، وقطعوا العلائق، وتركوا الاتصال،  
أو الرد، أو ربما نقابل واحد منهم بعد مدة فيلقانا بكل برود وثقل وعبوس دون أن  
ندري سببَ ذلك، ودون أن يكون له مقدمات.

وقد نكون معهم على اتفاق حول شأن من الشؤون، ثم نفاجئ بنقض ذلك

الاتفاق دون سبب ظاهر.

ولا ريب أن هذه آفة قبيحة تعصف بالعلاقات، وتؤدي بكثير من المودات، وتورث سوء الظن، وتبعث على القطيعة.

فيحسن بالعقل اللبيب الذي يحترم نفسه، ويرعى حق من يخالطه، أو يصادقه أن يضع هذا الأمر في حسبانته؛ فلا يقدم على قطع العلاقة مع أحد دون سبب، ولا ينقض ما أبرمه من عهد أو عقد مع غيره دون سبب أو مقدمات، وإذا كان ثم سبب فليخبر صاحبه به، ولينبذ إليه على سواء؛ فلعل له عذراً، وأنت تلوم، ولعل ما بلغك أو توصلت إليه من نتيجة يكون غير صواب.

أما أن يقطع المودة، وينقض الميثاق هكذا فما ذلك بمسلك سديد ولا رشيد. ثم إن العقل إذا تعرض لمثل ذلك الموقف؛ بحيث يرى من بعض خلطائه تنكراً، فإنه يأخذ بالحكمة؛ فإن وجد سبباً لذلك التغير، أو كان ثم لبس أو سوء فهم - فإنه يوضحه، أو يعتذر إن كان أخطأ في حق صاحبه.

وإذا لم يكن شيء من ذلك فلا يقلق نفسه، ولا يجعلها تذهب حشرات على ذلك الصاحب العاتب الزاري، فاللوم على من صرم بلا سبب، وربما كان ذلك طبيعة له معك ومع غيرك.

وإذا كان الأمر كذلك فلا خير في ودّ يجيء تكلفاً، وليست تنال مودة بعتاب، وإذا هجرك بلا سبب فربما يرضى بغير سبب.

وصلّى الله وسلم على نبينا محمد.

## ١٩- ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد  
فإن الحديث ههنا سيدور قوله - تعالى - : ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وما تحمل  
تلك الآيات من لطائف وأسرار.

فهذه الآية العظيمة تعد بلسماً لكثير من الأدواء التي يُبتلى بها كثير من  
العقلاء؛ حيث يتتلون بمن لا خلاق لهم من السفهاء الذين يثيرون حولهم  
الغبار، ويسبؤون إليهم بالكلام البذيء المؤذي.

ويكثر ذلك في بعض الدوائر التي تضم خليطاً من الناس ، كما يشيع في  
مجتمعات الطلاب والمعلمين.

وخير علاج لتلك الإساءات هو الإعراض عن الجاهلين؛ فمن أعرض عنهم  
حمى عرضه ، وأراح نفسه ، وسلم من سماع ما يؤذيه.

قال - عز وجل - : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

فبالإعراض عن الجاهلين يحفظ الرجل على نفسه عزتها، إذ يرفعها عن  
الطائفة التي تلذ المهاترة والإقذاع ، قال بعض الشعراء :

إني لأعرض عن أشياء أسمعها      حتى يقول رجال إن بي حمقاً  
أخشى جواب سفيه لا حياء له      فسئل وظن أناس أنه صدقاً  
وقال أبو العتاهية :

والصمتُ للمرء الحليم وقايةً      ينفي بها عن عرضه ما يكره  
فكل السفيه إلى السفاهة وانتصف      بالحلم أو بالصمت ممن يسفه

والعرب تقول: «إن من ابتغاء الخير اتقاء الشر».

وروي أن رجلاً نال من عمر بن عبد العزيز رحمه الله فلم يجبه، ف قيل له: ما يمنعك منه؟.... قال: التقى مُلجَمٌ.

هذا وإن من أعظم ما يعين على الإعراض عن الجاهلين زيادة على ما مضى ما يلي:

أولاً: الترفع عن السباب؛ فذلك من شرف النفس، وعلو الهمة، كما قالت الحكماء: «شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم».

قال الأصمعي: «بلغني أن رجلاً قال لآخر: والله لئن قلت واحدة لتسمعن عشراً».

فقال الآخر: لكنك إن قلت عشراً لم تسمع واحدة».

و شتم رجل الحسن، وأربى عليه، فقال له الحسن: «أما أنت فما أبقيت شيئاً، وما يعلم الله أكثر».

ثانياً: استحضار كون الإساءة دليلاً على رفعة شأن المُساء إليه، وشرفه؛ فذلك مما يهون ما يلقي من سب وتجريح.

وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

.....

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

إذا سبني نذل تزايدت رفعة  
ولو لم تكن نفسي علي عزيزة  
وما العيب إلا أن أكون مسايبه  
لمكنّتها من كل نذل تحاربه

ثالثاً: الاستهانة بالمسيء؛ فذلك من ضروب العزة والأنفة، ومن مستحسن الكبر والإعجاب، ومن ذلك قول بعض الزعماء في شعره:

أو كلما طَنَّ الذبابُ طَرْدُثَهُ      إن الذباب إذا علي كريم  
وأكثرَ رجلٍ مِنْ سَبِّ الأحنف وهو لا يجيبه، فقال السَّابُّ: والله ما منع  
الأحنفَ من جوابي إلا هواني عليه.

وفي مثله يقول الشاعر:

نَجَابُكَ تُؤْمِكُ مَنْجَى الذبابِ      حَمَّتْهُ مَقَادِيرُهُ أَنْ يُنَالَا  
وشتم رجل الأحنف، وجعل يتبعه حتى بلغ حيَّه، فقال الأحنف: يا هذا إن  
كان بقي في نفسك شيء فهاته، وأنصرف؛ لا يَسْمَعُكَ بعض سفهائنا، فتلقَى  
ماتكره.

وأسمع رجل ابن هبيرة فأعرض عنه، فقال: إياك أعني، فقال له: وعنك أعرض.  
رابعاً: أن يستحضر أن مجارة السفهاء شر وبلاء، فهناك من إذا ابتلي بسفيه  
ساقط، لا خلاق له، ولا مروءة فيه - أخذ يجاريه في سفهه وقيله وقاله، مما يجعله  
عرضة لسماع مالا يرضيه من ساقط القول ومرذوله، فيصبح بذلك مساوياً  
للسفيه؛ إذ نزل إليه، وانحط إلى رتبته.

إذا جَارَيْتَ ذَا خُلُقٍ دَنِيئاً      فَأَنْتَ وَمَنْ تَجَارِيهِ سَوَاءٌ  
قال الأحنف بن قيس: «من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، ورُبَّ غِيظٍ  
تَجَرَّعَتْهُ مَخَافَةٌ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ.

خامساً: أن يستحضر الإنسان أنه بالإعراض عن الجاهلين يكرم نفسه بذلك،  
ويكرم قرابة السفيه الأبرياء الأعزاء؛ لأنهم لا ذنب لهم، ولهذا قيل: «لأجل  
عين تُكْرَمُ أَلْفُ عَيْنٍ».

وقد يظن ظان أن الإعراض عن الجاهل والإغضاء عن إساءته مع القدرة

عليه- موجب للذلة، والمهانة، وأنه قد يجر إلى تطاول السفهاء.

وهذا خطأ؛ ذلك أن العفو والحلم لا يشتبه بالذلة بحال؛ فإن الذلة احتمال الأذى على وجه يذهب الكرامة.

أما الحلم فهو إغضاء الرجل عن المكروه، حيث يزيده الإغضاء في أعين الناس رفعة ومكانة.

سياسة الحلم لا بطش يكدرها فهو المهيب ولا تخشى بوادره  
فالعفو إسقاط حقك جوداً، وكرماً، وإحساناً مع قدرتك على الانتقام،  
فتؤثر الترك؛ رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق.

بخلاف الذل؛ فإن صاحبه يترك الانتقام عجزاً، وخوفاً، ومهانة نفس؛ فهذا  
غير محمود، بل لعل المنتقم بالحق أحسن حالاً منه؛ لأن من الناس من بلغت به  
الرقاعة واللؤم أن يفسر الإكرام والإغضاء بالضعف، وعليه يحمل قول أبي  
الطيب المتنبّي:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقول الشريف الرضي:

في الناس إن فتئت شتهم مَن لا يُعزُّك أو تُذلُّه  
فاترك مجاملة اللئيم ثم فإن فيها العجز كله

ومعنى قوله: «أو تذلّه»: إلا أن تذلّه، كما في الشاهد النحوي:

وكنّت إذا غمزت قناة قوم كسرت كعوبها أو تستقيما

أي: إلا أن تستقيما.

وهذا راجع إلى حكمة الإنسان، وتقديره الأمور، وتدبره للعواقب؛ فيعرف

متى يأخذ بالحزم، ومتى يأخذ بالحلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

## ٢٠- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:  
فإن ليلة القدر ليلة كثيرة الخير، شريفة القدر، عميمة الفضل، متنوعة البركات.

فمن بركاتها أنها أفضل من ألف شهر قال الله- عز وجل-: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ القدر: ٣.

أي أفضل من ثلاث وثمانين سنة، وأربعة أشهر.

ومن بركاتها أن القرآن العظيم أنزل فيها قال- عز وجل-: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ الدخان: ٣.

ومن بركاتها أن من قامها إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه بعض بركات تلك الليلة، وهي فيض من غيض من البركات التي خص الله بها هذه الأمة، فهي أمة مباركة، وكتابها كتاب مبارك، ونبينا نبي مبارك.

والبركات التي أفاضها الله على هذه الأمة ببركة نبينا لا تعد ولا تحصى؛ فمن ذلك أنه بورك لهذه الأمة في بكورها، وبورك لها في أعمالها، وعلومها؛ فهي خير الأمم، وأكرمها على الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فكل من استقرأ أحوال العالم وجد المسلمين أحداً وأسدَّ عقلاً، وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال».



وقال في موضع آخر: «فهدى الله الناس ببركة نبوة محمد ﷺ وبما جاء به من البينات والهدى هدايةً جلّت عن وصف الواصفين، وفاقت معرفة العارفين، حتى حصل لأُمته المؤمنین عموماً، ولأهل العلم منهم خصوصاً من العلم النافع، والعمل الصالح، والأخلاق العظيمة، والسنن المستقيمة ما لو جُمِعَتْ حكمةُ سائر الأمم علماً وعملاً، الخالصةُ من كلِّ شوبٍ إلى الحكمة التي بعث بها-لَتَفَاوَتْا تَفَاوُتاً يَمْنَعُ معرفةَ قَدْرِ النسبة بينهما؛ فله الحمد كما يحب ربنا ويرضى، ودلائل هذا وشواهد له ليس هذا موضعها» انتهى كلامه.

والدرس المستفاد من هذا المعنى أن نتعرض لتلك النفحات، وأن نلتمس تلك البركات، وذلك بالإيمان، والعمل الصالح، والإخلاص، واتباع السنة، واحتساب الأجر، والبعد عن المعاصي.

وصلّى الله على نبينا محمد.

## ٢١- ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه

أما بعد :

فقد قال الله - عز وجل - : ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾

البقرة: ١٨٧.

وجاء في الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال : «كان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان».

ففي الآية والحديث دليلٌ على مشروعية الاعتكاف ، وهو لزومُ مسجدٍ على وجهِ القرية من شخص مخصوص بصفة مخصوصة.

والاعتكافُ ليس بواجب ، وإنما هو نافلةٌ من النوافل.

وفيما يلي ذكر لمقصود الاعتكاف ، وسِرِّه ، وشيء من آدابه ، والملاحظات على بعض المعتكفين.

قال ابن القيم رحمه الله مبيناً المقصود من الاعتكاف : «وشرع لهم الاعتكافُ الذي مقصوده وروحه عكوفُ القلبِ على الله - تعالى - وجمعيته عليه ، والخلوة به عن الاشتغال بالخلق ، والاشتغالُ به وحده سبحانه ؛ بحيث يصير ذكره ، وحبُّه ، والإقبالُ عليه في محلِّ هموم القلب ، وخطراته ؛ فيستولي عليه بدلها ، ويصير الهمُّ كله به ، والخطراتُ كلها بذكره ، والتفكيرُ في تحصيل مراضيه ، وما يُقَرِّبُ منه ؛ فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق ؛ فيَعِدُّه بذلك لأنسه به يومَ

الوحشة في القبور حين لا أنيسَ له، ولا ما يَفْرَحُ به سواه؛ فهذا مقصودُ الاعتكافِ الأعظم» انتهى كلامه- رحمه الله..

أما آداب الاعتكاف فهناك جملةٌ من الآداب يحسن بالمعتكفين مراعاتها، والأخذُ بها؛ ليكون اعتكافُهم كاملاً مقبولاً بإذن الله، فمن ذلك ما يلي:

أولاً: استحضارُ النيةِ الصالحةِ، واحتسابُ الأجر على الله- عز وجل-.

ثانياً: استشعارُ الحكمةِ من الاعتكاف، وهي الانقطاعُ للعبادة، وجمعيَّةُ القلب على الله- عز وجل-.

ثالثاً: ألا يخرج المعتكفُ إلا لحاجته التي لا بد منها.

رابعاً: المحافظةُ على أعمال اليوم واليلة من سنن وأذكار مطلقة ومقيدة، كالسنن الرواتب، وسنة الضحى، وصلاة القيام، وسنة الوضوء، وأذكار طرفي النهار، وأذكار أدبار الصلوات، وإجابة المؤذن، ونحو ذلك من الأمور التي يحسن بالمعتكف ألا يفوته شيء منها.

خامساً: الحرصُ على الاستيقاظ من النوم قبل الصلاة بوقتٍ كافٍ سواء كانت فريضة، أو قياماً؛ لأجل أن يتهيأ المعتكف للصلاة، ويأتيها بسكينة ووقار، وخشوع.

سادساً: الإكثارُ من النوافل عموماً، والانتقالُ من نوع إلى نوع آخر من العبادة؛ لأجل ألا يدبَّ الفتورُ والمللُ إلى المعتكف؛ فيمضي وقته بالصلاة تارة، وبقراءة القرآن تارة، وبالتسبيح تارة، وبالتهليل تارة، وبالتحميد تارة، وبالتكبير تارة، وبالدعاء تارة، وبالاستغفار تارة، وبالصلاة على النبي ﷺ تارة وب: لا حول ولا قوة إلا بالله تارة، وبالتدبر تارة، وبالتفكر تارة، وهكذا....

سابعاً: اصطحابُ بعض كتب أهل العلم، وخصوصاً التفسير؛ حتى يستعانَ به على تدبر القرآن.

ثامناً: الإقلال من الطعام، والكلام، والنام؛ فذلك أدعى لركة القلب، وخشوع النفس، وحفظ الوقت، والبعد عن الإثم.

تاسعاً: الحرصُ على الطهارة طيلة وقتِ الاعتكاف.

عاشراً: يحسن بالمعتكفين أن يتواصوا بالحق، وبالصبر، وبالنصيحة، والتذكير، وأن يتعاونوا على البر والتقوى، والإيقاظ من النوم، وأن يقبل بعضهم من بعض.

وبالجملة فليحرص المعتكف على تطبيق السنة، والحرص على كل قرية، والبعد عن كل ما يفسد اعتكافه، أو ينقص ثوابه.

وأخيراً هذه ملحوظات حول الاعتكاف:

أولاً: كثرةُ الزيارات وإطالتها من قبل بعض الناس لبعض المعتكفين، وينتج عن ذلك كثرةُ حديثٍ، وإضاعةُ أوقات.

ثانياً: كثرةُ الاتصالات والمراسلات عبر الجوال بلا حاجة.

ثالثاً: المبالغة في إحضار الأطعمة؛ وذلك يفضي إلى ثقل العبادة، وإيذاء المصلين برائحة الطعام؛ فالأولى للمعتكف أن يقتصد في ذلك.

رابعاً: كثرةُ النوم، والثاقلُ عند الإيقاظ، والإساءة لمن يوقظ من قبل بعض المعتكفين بدلاً من شكره، والدعاء له.

خامساً: إضاعة الفرص؛ فبعض المعتكفين لا يبالي بما يفوته من الخير، فتراه لا يتحرى أوقات إجابة الدعاء، ولا يحرص على اغتنام الأوقات، بل ربما فاته بسبب النوم أو التكاثر بعض الركعات أو الصلوات.

سادساً: أن بعض الناس يشجع أولاده الصغار على الاعتكاف، وهذا أمرٌ حسن، ولكن قد يكون الأولاد غير متأدبين بأدب الاعتكاف، فيحصل منهم أذية، وإزعاج، وجلبة وكثرة مزاح وكلام، وخروج من المسجد، ونحو ذلك. فإذا كان الأمر كذلك فيوتهم أولى لهم.

هذه بعض الملحوظات التي يحسن مراعاتها حال الاعتكاف.

اللهم آنس قلوبنا بذكرك، وحبك، والقرب منك، وصلِّ اللهم وسلم على

نبينا محمد.

## ٢٢- ﴿أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾

الحمد لله مجيب الدعوات وكاشف الكربات، والصلاة والسلام على أزكى البريات، أما بعد:

فإن شأن الدعاء عظيم، ونفعه عميم، ومكانته عالية في الدين، فما استجلبت النعم بمثله ولا استدفعت النقم بمثله، ذلك أنه يتضمن توحيد الله، وإفراده بالعبادة دون من سواه، وهذا رأس الأمر، وأصل الدين.

وإن شهر رمضان لفرصة سانحة، ومناسبة كريمة مباركة يتقرب فيها العبد إلى ربه بسائر القربات، وعلى رأسها الدعاء؛ ذلكم أن مواطن الدعاء، ومظان الإجابة تكثر في هذا الشهر؛ فلا غرو أن يكثر المسلمون فيه من الدعاء.

ولعل هذا هو السر في ختم آيات الصيام بالحث على الدعاء، حيث يقول ربنا -عز وجل-: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة: ١٨٦. وإليكم هذه الوقفات اليسيرة مع مفهوم الدعاء، وفضله.

الدعاء: هو أن يطلب الداعي ما ينفعه وما يكشف ضره؛ وحقيقته إظهار الافتقار إلى الله، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الشاء على الله -عز وجل- وإضافة الجود والكرم إليه.

أما فضائل الدعاء، وثمراته، وأسراره - فلا تكاد تحصر، فالدعاء طاعة لله، وامثال لأمره، قال الله -عز وجل-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر: ٦٠. والدعاء عبادة، قال النبي ﷺ: «الدعاء هو العبادة».

رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، ورواه ابن ماجه، وصححه الألباني.  
والدعاء سلامة من الكبر: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ غافر: ٦٠.  
والدعاء أكرم شيء على الله، قال النبي ﷺ: «ليس شيء أكرم على الله - عز وجل - من الدعاء».

رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد، وابن ماجه، والترمذي والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي.  
والدعاء سبب لدفع غضب الله، قال النبي ﷺ: «من لم يسأل الله يَعْضَبُ عليه».

أخرجه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني.

والدعاء سبب لانسراح الصدر، وتفريج الهم، وزوال الغم، وتيسير الأمور، ولقد أحسن من قال:

ولاني لأدعو الله والأمر ضيقٌ عليّ فما ينفك أن يتفرجاً  
وربّ فتى ضاقت عليه وجوهه أصاب له في دعوة الله مخرجاً

والدعاء دليل على التوكل على الله، فسرُّ التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله، وفعل الأسباب المأذون بها، وأعظم ما يتجلى هذا المعنى حال الدعاء؛ ذلك أن الداعي مستعين بالله، مفوض أمره إليه وحده.

والدعاء وسيلة لكبر النفس، وعلو الهمة؛ ذلك أن الداعي يأوي إلى ركن شديد ينزل به حاجاته، ويستعين به في كافة أموره؛ وبهذا يتخلص من أسر

الخلق، ورقهم، وممتهم، ويقطعُ الطمعَ عما في أيديهم، وهذا هو عين عِزِّه، وفلاحه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وكَلِّمَ قَوِي طَمَعُ الْعَبْدِ فِي فَضْلِ اللَّهِ، وَرَحْمَتِهِ، لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ وَدَفْعِ ضَرُورَتِهِ؛ قَوِيَتْ عِبُودِيَّتُهُ لَهُ، وَحَرِيَّتُهُ مِمَّا سِوَاهُ؛ فَكَمَا أَنَّ طَمَعَهُ فِي الْمَخْلُوقِ يُوجِبُ عِبُودِيَّتَهُ لَهُ فَيَأْسُؤُهُ مِنْهُ يُوجِبُ غِنَى قَلْبِهِ» اهـ. والدعاء سلامة من العجز، ودليل على الكياسة، قال النبي ﷺ: «أعجز الناس من عجز من الدعاء، وأبخل الناس من بخل بالسلام» رواه ابن حبان، وصححه الألباني.

ومن فضائل الدعاء: أن ثمرته مضمونة بإذن الله. قال النبي ﷺ: «ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل، أو كفَّ عنه من سوء مثله؛ ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم» رواه أحمد والترمذي، وحسنه الألباني.

وقال ﷺ: «ما من مؤمنٍ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِلَّهِ يَسْأَلُهُ مَسْأَلَةً إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، إِمَّا عَجَّلَهَا لَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِمَّا ذَخَرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، مَا لَمْ يَعَجَلْ».

قالوا: يا رسول الله وما عَجَلَتْه؟ قال: «يقول: دعوت ودعوت ولا أراه يُسْتَجَابُ لِي» أخرجه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني.

ففي الحديثين السابقين وما في معناهما؛ دليل على أن دعاء المسلم لا يُهْمَلُ، بل يُعْطَى ما سألَه إِمَّا مُعْجَلًا، وَإِمَّا مُؤَجَّلًا.

قال ابن حجر رحمه الله: «كُلُّ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ، لَكِنْ تَنْتَوِعُ الْإِجَابَةُ؛ فَتَارَةً تَقَعُ بَعَيْنُ مَا دَعَا بِهِ، وَتَارَةً بِعَوَضِهِ» اهـ.

ومن فضائل الدعاء: أنه سبب لدفع البلاء قبل نزوله، ورفع بعد نزوله،



قال النبي ﷺ: «لا يغنى حذرٌ من قدرٍ، وإن الدعاءَ ينفع مما نزل وما لم ينزل، وإن الدعاءَ ليلقى البلاءَ فيعتلجان إلى يوم القيامة» أخرجه الطبراني وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

ومعنى يعتلجان أي: يتصارعان، ويتدافعان.

والدعاء يفتح للعبد بابَ المناجاةِ ولذائذها، قال بعضُ العباد: «إنه ليكون لي حاجةٌ إلى الله، فأسأله إياها، فيفتحُ عليَّ من مناجاته، ومعرفته، والتذللِ له، والتملقِ بين يديه ما أحب معه أن يؤخرَ عني قضاؤها، وتدومَ لي تلك الحال».

والدعاء من أعظم أسباب الثبات والنصر على الأعداء، قال-تعالى-عن طالوت وجنوده لما برزوا للجالوت وجنوده: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَكُنْتُ أَقْدَامَنَا وَانْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة: ٢٥٠.

فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ البقرة: ٢٥١.

ومن فضائل الدعاء: أنه مفرغُ المظلومين، وملجأُ المستضعفين؛ فالمظلوم أو المستضعف إذا انقطعت به الأسباب، وأغلقت في وجهه الأبواب، ولم يجد من يرفع عنه مظلمته، ويعينه على دفع ضرورته، ثم رفع يديه إلى السماء، وبث إلى الجبار العظيم شكواه-نصره الله، وأعزه، وانتقم له ولو بعد حين.

وأخيراً: فإن الدعاءَ دليلٌ على الإيمان بالله، والإقرار له بالربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات؛ فدعاء الإنسان لربه متضمنٌ إيمانه بوجوده، وأنه غنيٌّ، سميعٌ بصيرٌ، رحيمٌ، قادرٌ، جوادٌ، مستحقٌ للعبادة دون من سواه.

اللهم يسرنا ليسرى، وجنبنا العسرى، اللهم اختم بالصالحات أعمالنا، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

### ٢٣- ﴿لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد  
فإن الحديث ههنا سيدور حول هداية قول الله - تعالى -: ﴿لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

فأنت إذا تأملت هذه الآية وجدت أن من أعظم مقاصد الشيطان إدخال الحزن على المؤمن، وأدركت أن من أعظم مقاصد الشريعة إسعاد المؤمن، وطرد الحزن عنه.

قال الله - عز وجل -: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ المجادلة: ١٠.

وفي هذا إشارة إلى أن الشيطان لا يَقِفُ ولا يُقْصِرُ عن محاولة تكدير صفو المؤمن، وإزعاجه في كل حال؛ فتراه يذكره بما يسوؤه، ويمنيه بالأماني الباطلة التي تجلب له الشقاء.

وتراه يُخْطِرُ بباله الذكريات الأليمة والاحتمالات السيئة، والخيالات المثبطة عن العمل.

فإذا استجاب الإنسان لذلك؛ فصار يستدعي تلك الخواطر، ويمجتر تلك المآسي، ويسترسل مع الاحتمالات الرديئة، والظنون السيئة - عاش في ألم، وضيق، وحصر، وصار يأكل بعضه بعضاً، ويعذب نفسه بنفسه.

أما إذا قطع تلك الواردات، ودرأها عن نفسه ما استطاع، واشتغل بما يعنيه، ونظر إلى الجوانب المشرقة في الحياة، وفي سيرته، واستعاذ من الشيطان

ووساوسه- كَبُرَتْ نَفْسُهُ، وَعَلَتْ هِمَّتُهُ، وزاد نشاطه وإقباله على الجد، وانشرح صدره، وعظم إنتاجه.

وهذا مما يفسر لنا سرَّ النجاح عند بعض الناس، وسرَّ الإخفاق عند آخرين؛ فالنجاح يَكْمُنُ في كون الناجحين يتوكلون على الله، ويستحضرون أن كيد الشيطان ضعيف، وأنه ليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله.

والإخفاق يكمن في كون المخفقين يسترسلون مع الأوهام، ويدعُونَ كيد الشيطان يستحوذ على أفكارهم، ويأخذ بمجامع قلوبهم، فيقعدهم عن العمل، ويُفضي بهم إلى البطالة والكسل.

فالآية الكريمة تشير إلى أنه ينبغي للمؤمن أن يكون مشرق النفس، مبتهجاً بالحياة، مطمئن الخاطر، بعيداً عن كل ما يكدر عليه صفوه؛ فذلك مما يبعثه إلى قوة الإقبال على الله، والحرص على ما ينفعه في أمور دينه ودنياه؛ ذلك أن المبتهج بالحياة يزيده ابتهاجه قوةً إلى قوته، فيكون أقدر على الجد، وحسن الإنتاج، ومقابلة الصعاب من الرجل المنقبض الصدر، الممتلئ بالهم والغم.

والتجربة شاهد على أن المستبشرين باسمين للحياة خير الناس صحة، وأقدرهم على الجد والنشاط، وأقربهم إلى النجاح والفلاح، وأكثرهم سعادة واستفادة مما في أيديهم ولو كان قليلاً.

فالابتسام للحياة يضيؤها، ويعين على احتمال متاعبها؛ فالعمل الشاق العسير يَخِفُّ حملة بالنفس المشرقة المتفائلة؛ لذا كان من النعم الكبرى على الإنسان أن يعتاد النظر إلى الجانب المشرق في الحياة لا المظلم منها، وأن يُمنَح القدرة على السرور يستمتع به متى وُجِدَتْ أسبابه، فإن لم تكن كذلك سعى سعيه في إيجادها.

ويخطئ كثير من الناس حين يظن أن أسباب السرور كلها في الظروف الخارجية، فيشترط؛ لِيُسَرَّ مَالاً، وبنين، وصحة ونحو ذلك؛ فالسرور يعتمد على النفس أكثر مما يعتمد على الظروف الخارجية، وفي الناس من يشقى في النعيم، وفيهم من ينعم في الشقاء، وفيهم من لا يستطيع التبسم بكل ماله، وفيهم من يتبسم دائماً من أعماقه بأتفه ثمن وبلا ثمن.

وهناك نفوس تستطيع أن تجعل من كل شيء شقاءً ونكدًا، وهناك نفوس تستطيع أن تُوجِدَ من كل شيء سعادةً وأنساً.

وهناك من ينغص على نفسه وعلى مَنْ حوله مِنْ كلمة يسمعها، أو يؤوِّلها تأويلاً سيئاً، أو من عملٍ تافه حدث له أو منه، أو من مالٍ خسره، أو من ربح كان ينتظره فلم يحدث، أو نحو ذلك، فتراه بعد ذلك وقد اسودت الدنيا في نظره، ثم هو يُسَوِّدُهَا على مَنْ حوله.

وهؤلاء عندهم قدرة على المبالغة في الشر، فيجعلون من الحبة قُبَّةً، ومن البذرة شجرة، وليس عندهم قدرة على الخير؛ فلا يفرحون بما أوتوا ولو كان كثيراً، ولا ينعمون بما نالوا ولو كان عظيماً.

فالمبتسمون للحياة ليسوا أسعد الناس حالاً لأنفسهم ومن حولهم فحسب، بل هم مع ذلك أقدر على العمل، وأكثر احتمالاً للمسؤولية، وأصلح لمواجهة الشدائد ومعالجة الصعاب، وأجدر بالإتيان بعظائم الأمور التي تنفعهم وتنفع الناس.

ولهذا إذا أراد الأدباء أن يبالغوا في الثناء على الممدوح، ويبينوا عظم همته، واستسهاله للصعاب - وَصَفُوهُ بأنه يتبسم في أحلك المواقف وأشدّها خطراً، قال

أبو الطيب المتنبي يمدح سيف الدولة :

تمربك الأبطال كلمى هزيمة      ووجهك وضاح وثغرك باسم

ويقال : إن أحكم بيت قالته العرب :

ولربما ابتسم الكريم من الأذى      وفؤاده من حره يتأوه

فذو النفس الباسمة المشرقة يرى الصعاب ، فيلذ له التغلب عليها؛ ينظرها

فييسم ، ويعالجها فييسم ، وينجح فييسم ، ويخفق فييسم .

وذو النفس العابسة المتجهم لا يرى صعاباً فيوجدتها ، وإذا رآها أكبرها ،

واستصغر همته بجانبها ، فهرب منها ، وطفق يسب الدهر ، ويعاتب القدر ،

ويتعلل بـ ( لو وإذا وإن ) .

وهكذا ترشد تلك الآية العظيمة وهي قوله - تعالى - : ﴿ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ

آمَنُوا ﴾ إلى تلك المعاني السامية الكفيلة بطرد الهم ، وجلب السعادة ، وتحمل

المصاعب .

## ٢٤- ﴿بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه  
أما بعد

فإن الحديث ههنا سيكون حول هداية قوله - تعالى - في سورة سبأ: ﴿بَاعِدْ  
بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾.

قال الله - عز وجل -: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ  
كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)﴾ سبأ.

قيل في تفسيرها: كان لكل رجل منهم في مسكنه جنتان جنة عن يمين المسكن  
وجنة عن يساره، فكانوا يتفيئون ظلالهما في الصباح والمساء، ويجتنون ثمارها  
من نخيل، وأعناب، وغيرها.

وقيل: وكانت مدينتهم مخوفة عن يمينها وشمالها بغابة من الجنات  
يصطافونها، ويستثمرونها.

بل قيل: إن السائر لو وضع على رأسه مكتلاً لوجده قد ملئ ثماراً مما يسقط  
من الأشجار التي يسير تحتها.

وكان من تمام نعمتهم أن يسّر الله لهم الأسفار، وعمران الديار، وكانوا إذا  
خرجوا من مأرب إلى البلاد الشامية قوافل للتجارة، وبيع الطعام سلكوا طريق  
تهامة، ثم الحجاز، ثم مشارف الشام، ثم بلاد الشام، فكانوا كلما ساروا  
مرحلة وجدوا قرية أو بلدًا أو داراً للاستراحة وتزودوا؛ فكانوا من أجل ذلك لا  
يحملون معهم أزواداً إذا خرجوا من مأرب.

وكانوا يسيرون غداً وعشياً، فيسيرون في الصباح، ثم تعترضهم قرية، فيريحون فيها ويَقِيلُون، ويسيرون في المساء، فتعرضهم قرية يبيتون بها. فمعنى ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أي سيروا كيف شئتم. ولكنهم -مع ذلك كله- لم يشكروا نعمة الله، بل أعرضوا، وقالوا ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾.

وقد درج المفسرون على أنهم دعوا الله بذلك؛ فلم يَقْدُرُوا نعمة الله العظيم قَدْرَهَا؛ فسألوا الله أن تزول تلك القرى العامرة؛ ليسيروا في الفياضي، ويحملوا الأزواد من الطعام والشراب.

ثم يحتمل -كما يقول ابن عاشور- أن يكون أصحاب تلك المقالة ممن كانوا أدركوا حالَ تباعدِ الأسفار في بلادهم قبل أن تؤول إلى تلك الحضارة، أو ممن كانوا يسمعون أحوالَ الأسفارِ الماضية في بلادهم، أو أسفار الأمم البادية، فتروق لهم تلك الأحوال.

وهذا من كُفْرِ النعمة الناشئ عن فساد الذوق في إدراك المنافع وأضدادها؛ لذا كانت النتيجة ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

فصار أولئك القوم الذين يعيشون في مجبوحة من العيش أحاديث، أي لم يبقَ منهم أحد، فصار وجودهم في الأخبار والقصص؛ حيث تفرقوا بعد سيل العرم؛ فكان ذلك مُسرِعاً فيهم بالفناء بالتغرب في الأوطان، والفاقة، وتسلبت العوادي في الطرقات، حتى ضربت العرب بهم المثل في قولهم: ذهبوا أو تفرقوا أيدي، أو أيادي سبأ، كما قال ذو الرمة:

فيا لك من دار تَفَرَّقَ أهلُها أيادي سباً عنها وطال انتظارها

والمقصود مما سبق إirاده من هذه القصة ما تحمله تلك الآية من هداية ألا وهو التنبيه على أمر يقع فيه بعض الناس من المسلمين ممن أدركوا شظف العيش، وشدة الفاقة، وتباعد الأسفار؛ فمنَّ الله بعد ذلك على الناس بوفرة المال، ورغد العيش، وكثرة وسائل الرفاهية، والمواصلات، وما جرى مجرى ذلك؛ فتجد من الناس من يتلهف على ماضيه، وسالف زمانه.

والحنينُ إلى الماضي مروءة، قال ابن عبد البر رحمه الله: «قيل لبعض الحكماء: بأي شيء يُعرف وفاء الرجل دون تجربة أو اختبار؟ قال: بحنينه إلى أوطانه، وتلهفه على ما مضى من زمانه».

وما أجمل أن تذكر الحالة السابقة حتى ينبعث الإنسان إلى مزيد من الشكر. ولكن الذي يحصل - أحياناً - أن تُذكرَ الحالةُ الماضيةُ مصحوبةً بشيء من التنكر للنعمة الحاضرة؛ فتجد من يقول: هذه النعمة تسببت في الغفلة، والقطيعة، فياليت حالنا الأولى ترجع؛ حتى تعود الألفة، والترابط. وقد يقول مثل ذلك مَنْ أبطرتهمُ النعمة، فتراهم يملُّون حياة الدعة، والراحة؛ فيقولون بمثل المقالة السابقة.

ولا ريب أن ذلك ضرب من الجهل، والتشبه بالذين مرَّ ذكرُهم في الآية. وإلا هل يريد أولئك أن ترجع إليهم حياة الجوع، والفقر، والمرض، والسلب؟



أليس تيسرُ السبل ، ووجود الكهرباء ، ونعمةُ المساكن ، وتوافر الدواء ، وكثرة وسائل الاتصال - من أعظم ما يبعث على الراحة ، والطمأنينة ، والأمن ، والتفرغ للعبادة بمفهومها الشامل لمن أراد الآخرة ، وسعى لها سعيها؟

فاللائق بالإنسان إذا كان في كل ضيق أن يتعبد الله بالصبر؛ فتلك عبودية الضراء ، وإذا وسع له في الرزق أن يزيد من الشكر؛ فتلك عبودية السراء.

ولهذا انظر إلى الآيات السابقة كيف خُتِمت بخاتمة عجيبة؛ حيث جمعت بين وصفين عظيمين قال -تعالى-: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

والجمع بين هذين الوصفين لإفادة أن واجبَ المؤمن التخلُّقُ بهذين الخلقين ، وهما الصبر على المكاره ، والشكر عند النعم.

فالصبار يعتبر من تلك الأحوال؛ فيعلم أن الصبر على المكاره خير من الجزع ، ويرتكب أخف الضررين ، ولا يستخفه الجزع ، فيُلقي بنفسه إلى الأخطار ، ولا ينظر في العواقب.

والشكور يعتبر بما أُعطي من النعم؛ فيزداد شكراً لله -تعالى- ولا ييَطرُ النعمة ، ولا يطغى؛ فيعاقب بسلبها كما سُلِبَت عن سبأ.

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد.

## ٢٥- ﴿يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله صحبه ومن وآله ،

أما بعد :

فهذه وقفة حول قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ وما تحمله هذه الآية من هداية ودلالة .

فإنه - عز وجل - يقول : إن تقل للمؤمنين غضوا من أبصاركم يغضوا منها ، أي : أنهم سوف يبادرون إلى ذلك ؛ لأن إيمانهم بالله يقودهم إلى امتثال أمره ، واجتناب نهيه ، ولعلمهم بأن الله لا يأمرهم إلا بما فيه صلاحهم وفلاحهم في العاجل والآجل ، ولا ينهاهم عن شيء إلا وهو ضرر عليهم في دنياهم وأخراهم .

والحديث سيكون حول غض البصر ، وما يورثه من ثمرات ، وحول إطلاق البصر وما يجلبه من معاطب .

جاء في صحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فقال : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج ؛ فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم ؛ فإنه له وجاء » .

قال ابن حجر رحمته الله في شرح الحديث : « الوجاء : رض الخصيتين ، وقيل : رض عروقهما ، ومن يفعل به ذلك تنقطع شهوته ، ومقتضاه أن الصوم قانع للشهوة » . انتهى كلامه .

ففي هذا الحديث إشارة إلى فائدة كبرى من فوائد الصوم ، ألا وهي غض

البصر، وإحصان الفرج.

فالعصائم ينال هذه الفضيلة، ويسلم من معاطب إطلاق البصر وآفاته؛ فالآية الكريمة الأنفة أمرٌ بغضِّ البصر، والحديث الشريف الماضي وسيلة من أعظم الوسائل المعينة على غض البصر، ولزوم العفة؛ فالعين مرآة القلب، وإذا أطلق الإنسان بصره أطلق القلب شهوته، ومن أطلق بصره دامت حسرته؛ فأضر شيء على القلب إرسال البصر؛ فإنه يريد ما يشتدُّ إليه طلبه، ولا صبر له عنه، ولا سبيل إلى الوصول إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه.

ثم إن النظرة سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس-كما جاء في الحديث-وشأن السهم أن يسري في القلب؛ فيعمل فيه عمل السم الذي يسقاه المسموم، فإن بادر، واستفرغه وإلا قتله ولا بد.

وكذلك النظرة؛ فإنها تفعل في القلب ما يفعله السهم في الرمية فإن لم تقتله جرحته.

والنظرة بمنزلة الشرارة تُرمى في الحشيش اليابس، فإن لم تحرقه كله أحرقت بعضه كما قيل:

كلُّ الحوادثِ مبداها من النظر	ومعظمُ النارِ من مُستصغَرِ الشرِّ
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها	فتك السهام بلا قوسٍ ولا وتر
والمرءُ مادام ذا عينٍ يقلبها	في أعين الغيد موقوفٌ على الخطر
يسرُّ مُقلَّتُهُ ما ضرَّ مهجته	لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

والناظر يرمي من نظره بسهام غرضها قلبه وهو لا يشعر، قال المتنبي:

وأنا الذي اجتلب النية طرفه      فمن المطالب والقيلُ القاتلُ

قال ابن القيم رحمه الله: «ولما كان النظر أقرب الوسائل إلى المحرم اقتضت الشريعة تحريمه، وأباحته في موضع الحاجة.

وهذا شأن كل ما حُرِّم تحريم الوسائل؛ فإنه يباح للمصلحة الراجحة»

قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: «سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصري».

قال ابن القيم رحمه الله: «ونظرُ الفجأة هي النظرة الأولى، التي تقع بغير قصد؛ فما لم يتعمده القلب لا يعاقب عليه، فإذا نظر الثانية تعمداً أثم؛ فأمره النبي ﷺ عند نظرة الفجأة أن يصرف بصره، ولا يستديم النظر، فإن استدامته كتكريره». فما أحوجنا إلى غض البصر، وإلى ما يذكرنا به، خصوصاً في هذه الأزمنة، التي كثرت فيها الفتن، وتنوعت؛ حيث التبرج والسفور، والمجلات الهابطة، والأفلام الخليعة، والقنوات الفضائية، والمواقع الإلكترونية التي تغري بالرديلة، وتزري بالفضيلة.

فغض البصر - بإذن الله - أمانٌ من الفتنة، وسبيلٌ إلى الراحة والسلامة؛ فإذا غَض العبدُ بصره غَضَّ القلب شهوته وإرادته.

قال - تعالى -: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ النور: ٣٠.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فجعل - سبحانه - غض البصر، وحفظ الفرج هو أقوى تزكية للنفوس.

وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش، والظلم، والشرك، والكذب، وغير ذلك».

وقال ابن الجوزي رحمه الله : «والواجب على من وقع بصره على مُسْتَحْسِنٍ ، فوجد لذة تلك النظرة في قلبه أن يصرف بصره؛ فمتى ما تثبتت في تلك النظرة أو عاود وقع في اللوم شرعاً وعقلاً.

فإن قيل : فإن وقع العشق بأول نظرة فأَي لوم على الناظر؟  
 فالجواب : أنه إذا كانت النظرة لمحّة لم تَكْذُ توجبُ عِشْقاً ، إنما يوجهه جمودُ العين على المنظور بقدر ما تثبتُ فيه ، وذلك ممنوع منه.  
 ولو قَدَرْنَا وجودَه باللمحة ، فأثّر محبةً سَهْلَ قَمْعُ ما حصل .

إلى أن قال رحمه الله : «فإن قيل : فما علاج العشق إذا وقع بأول لمحّة؟  
 قيل : علاجهُ الإعراضُ عن النظر؛ فإن النظرة مثلُ الحبة تُلقَى في الأرض؛ فإذا لم يُلتَفَتْ إليها يَبَسَتْ ، وإن سقيت نَبَتَتْ؛ فكذلك النظرة إذا ألحقت بمثلها» .  
 وقال : «فإن جرى تفریطٌ باتباع نظرة لنظرة فإن الثانية هي التي تُخاف وتُحذر؛ فلا ينبغي أن تُحَقَّرَ هذه النظرة؛ فربما أورثت صبايةً صَبَّتْ دَمَ الصَّبِّ» .  
 وقال ابن القيم رحمه الله : «فعلى العاقل ألا يُحَكِّمَ على نفسه عشقَ الصور؛ لئلا يُوَدِّيَهُ ذلك إلى هذه المفاصد ، أو أكثرها ، أو بعضها؛ فمن فعل ذلك فهو المفرطُ بنفسه ، المُضِرُّ بها؛ فإذا هلكت فهو الذي أهلكها؛ فلولا تكررُهُ النظرَ إلى وجه معشوقه ، وطمعه في وصاله لم يتمكن عِشْقُهُ من قلبه» اهـ

اللهم إِنَّا نَسْأَلُكَ الهدى ، والتقوى ، والعفاف ، والغنى ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

## ٢٦- ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد  
 فإن الحديث سيدور حول هداية قول الله - تعالى - : ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ .  
 وهو جزء من آية من سورة الأنعام ، وهي قول الله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا  
 وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٨٢) .  
 وهذه الآية فصل الله بها القضاء بين إبراهيم وقومه ، وقد سبقها قوله - تعالى - :  
 عن إبراهيم - عليه السلام - لما حاج قومه : ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ  
 تَعْلَمُونَ﴾ .

ففصل الله بين الفريقين ، وحكم لإبراهيم - عليه السلام - .  
 والظلم في قوله - تعالى - : ﴿يَظْلَمُ﴾ : هو الشرك ، وما دونه من سائر المظالم ؛  
 فالشرك هو أظلم الظلم ، يليه ظلم الإنسان للعباد ، ثم ظلمه لنفسه بما دون  
 الشرك .

فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة كان له الأمن التام ، والهداية التامة في  
 الدنيا ، وفي البرزخ ، وفي الآخرة .

ومن أشرك بالله - عز وجل - لم يكن له أمن ، ولا اعتداء على الإطلاق ؛ لأن  
 الشرك - أظلم الظلم - فهو الظلم الرافع للأمن والهداية .

وأما ما دون الشرك من الذنوب فيحصل للعبد أمن بقدر ما معه من الإيمان ،  
 وينتفي عنه من الأمن بقدر ما فعل من الذنوب ، فيحصل له أصل الأمن ، وأصل  
 الهداية دون أن يحصل له كمالها .

والأمن ههنا شامل للأمن في الدنيا، والبرزخ، والآخرة - كما مر -.  
كما أنه شامل لأمن الأديان، وأمن الأفكار، وأمن الأبدان، وأمن الأوطان،  
وأمن القلوب.

وهذا حاصل لمن لم يلبسوا إيمانهم بشرك ولا معاصي.  
وإذا تأملت هذا تبين لك سببُ النقص الذي يعترينا من هذا الناحية، وتبين  
الجواب لمن يقول: لماذا لا نشعر بالأمن التام، والطمأنينة في قلوبنا مع أننا لا  
نشرك بالله، وهل ذلك الأمن والطمأنينة في الآخرة فحسب؟

ويجاب عن ذلك - كما مر - بأن يقال: إن سبب ذلك هو التفريط ببعض أفراد  
الإيمان وشعبه؛ فقد يكون سبب ذلك الخوف، وقلة الأمن - ارتكاب بعض  
الذنوب كالفواحش، والقطيعة، والعقوق، والظلم ونحو ذلك؛ فيعاقب الفرد  
والجماعة على ذلك، بحيث يشيع القلق، والخوف، وسوء الظن، ويشعر  
الإنسان بالاضطراب، وقلة الطمأنينة.

وإذا شاع في المجتمع توحيدُ الله، والتواصي بالصبر وبالمرحمة، وساد فيه  
العدل، والإحسان، والتكافل، والوفاء، والسماحة، وحسن الظن - حلت فيه  
الراحة، والطمأنينة، ورفرفت على أجوائه السعادة، والأمن.

وهكذا الحال للأفراد، فَمَنْ تَمَثَّلَ تلك المعاني عاش في سرور، وراحة، وأمن  
نفسي.

فحقيق علينا أن نشيع في أوساطنا معنى الأمن بمفهومه الشامل: أمن الفكر،  
وأمن الأبدان، وأمن القلوب.

وأن نستشعر أن التفريط في ذلك أو شيء منه - خسارة يتحملها كل مَنْ شارك

فيها ، أو لم يكن له يدٌ في درئها وهو قادر على ذلك.

وأن ندرك أن الأمن والنعيم يدرك في الدنيا كما يدرك في الآخرة مع عظم التفاوت في ذلك ، بخلاف من يظن أن ذلك إنما يكون في الآخرة ، وأن نعيم الدنيا إنما هو للكفار؛ خصوصاً إذا رأى ما هم عليه في الدنيا من الرياسة والمال؛ فيعتقد -كما يقول ابن تيمية- أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور ، وأن المؤمنين ليس لهم ما يتنعمون به في الدنيا إلا قليلاً.

فهذا خطأ وجهل ، بل العكس هو الصحيح ، فأهل الإيمان حقاً هم أسعد الناس وأشرحهم صدرأً في هذه الدنيا ، وأهل الكفر والفجور أشد الناس قلقاً وهماً وكدرأً.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مقررأً هذا المعنى : « وكل هذا محسوس مجرب ، وإنما يقع غلط أكثر الناس أنه قد أحس بظاهرٍ من لذات أهل الفجور وذاقها ، ولم يذق لذات أهل البر ولم يخبرها ».

قال ابن الجوزي رحمه الله : في حال من يتطلع ، ويمد طرفه إلى أرباب الدنيا : « فإياك أن تنظر إلى صورة نعيمهم ؛ فإنك تستطيه ؛ لبعده عنك ، ولو قد بلغته كرهته ، ثم في ضمنه من محن الدنيا والآخرة ما لا يوصف ؛ فعليك بالقناعة مهما أمكن ففيها سلامة الدنيا والدين .

وقد قيل لبعض الزهاد -وعنده خبز يابس- : كيف تشتهي هذا؟ فقال : « أتركه حتى أشتهيه » .

قال الحسن رحمه الله في العصاة : « إنهم وإن طقطقت بهم البغال ، وهملجت بهم البراذين -إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم ؛ أبى الله إلا أن يُذل من عصاه » .



فأهل المعصية يجدون في أنفسهم الذلة، والشقاء، والخوف، حتى وإن رآهم الناس بخلاف ذلك، ولو تظاهروا بالسعادة والسرور، ولو كانوا من الشهرة وبعد الصيت بمكان عال، ولو كانت الدنيا طوع أيمانهم وشمائلهم؛ فالذل والضنك لا يفارقهم، بل يزيد كلما زادوا بعداً عن ربهم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولهذا تجد القوم الظالمين أعظم الناس فجوراً، وفساداً، وطلباً لما يروّحون به أنفسهم من مسموع، ومنظور، ومشموم، ومأكول، ومشروب.

ومع هذا فلا تطمئن قلوبهم بشيء من ذلك.

هذا فيما ينالونه من اللذة، وأما ما يخافونه من الأعداء فهم أعظم الناس خوفاً، ولا عيشة لحائف.

وأما العاجز منهم فهو في عذاب عظيم، لا يزال في أسف على ما فاتته، وعلى ما أصابه.

أما المؤمن فهو مع قدرته له من الإرادة الصالحة، والعلوم النافعة ما يوجب طمأنينة قلبه، وانشراح صدره بما يفعله من الأعمال الصالحة، وله من الطمأنينة وقرة العين ما لا يمكن وصفه.

وهو مع عجزه -أيضاً- له من أنواع الإرادات الصالحة، والعلوم النافعة التي يتنعم بها -ما لا يمكن وصفه-.

وهكذا يتبين لنا أن الأمن الحقيقي بمفهومه الشامل إنما يكون لمن حققوا الإيمان ولم يلبسوا إيمانهم بظلم.

وصلّى الله وسلم على نبينا محمد.

## ٢٧- ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد  
 فإن الحديث ههنا سيكون حول قول الله - تعالى - : ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ .  
 فهذه آية عظيمة تذكر بنعمة جسيمة يُسْتَوْجَبُ شُكْرُهَا ، وَيُسْتَكْرَرُ كُنُودُهَا .  
 تلك هي نعمة الألفة ، وتقارب القلوب ، ومحبة الناس بعضهم بعضاً .  
 والعجيب أن كثيراً من النعم التي نتقلب فيها صباح مساء لا نعرف قدرها إلا  
 عند فقدانها .

ومن تلك النعم نعمة تألف القلوب ، وعطف بعضها على بعض ، ومودة  
 بعضها بعضاً .

ولو وقفت مع نفسك ، وسألتها ما الذي أَلَّفَ بين قلبك وقلوب كثيرين ممن  
 تعرفهم من أقارب لك ، وأباعد منك - لأدركت أن ذلك محض فضل الله - عز  
 وجل - .

ثم تأمل في السعادة التي تغمرك ، والأجور والمصالح التي تجنيها من جرّاء  
 تلك المحبة والألفة .

وإذا أردت أن تتصور عِظَمَ تلك النعمة ، فاسأل نفسك : ما مصيرك لو زالت  
 تلك النعمة أو بعضها ؟

وما موقفك لو زالت تلك الألفة بينك وبين أصدقائك ، أو أقرائك ، من  
 والدَيْنِ ، أو أولادٍ ، أو إخوان ؟

وماذا سيكون طعم الحياة إذا خَلَتْ من معاني الألفة ؟

إنها ستكون كالملح الأجاج ، وكالماء الزعاق.

وإنك لترى في حياة الناس نماذجَ لذلك؛ حيث زالت المودة بين أناس أشد ما يكونون قرابة كالآباء مع بعض أبنائهم ، وكالإخوة والجيران والأصدقاء فيما بينهم.

وربما بُذِلَ في سبيل إعادة المياه إلى مجاريها جهود ، وأموال ، وشفاعات في غير طائل.

ومن هنا ندرك نعمة الألفة ، وأنها محض فضل الله - عز وجل -.

وهذا بدوره يدعونا إلى أن نرعى تلك النعمة حق رعايتها ، وذلك بالحرص على تحقيق التقوى ، والبعد عن المعاصي؛ و:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ تَزِيلُ النِّعَمَ

ولهذا امتن الله - عز وجل - على نبيه بهذه النعمة الكبرى؛ ففَرَّقَهَا بكونه - تبارك وتعالى - كافيه ، ومؤيده بنصره ، ونصر المؤمنين؛ فوجود المؤمنين تأييدٌ من الله لرسوله؛ إذ وفقهم لاتباعه؛ فشرح صدره بمشاهدة تعاظم دعوته ، وتزايد أمته ، ولكون المؤمنين جيشاً ثابت الجنان؛ فجعل المؤمنين بذاتهم تأييداً.

قال الله - عز وجل - : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأنفال: ٦٢.

ثم قال الله - عز وجل - : ﴿ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ الأنفال: ٦٣.

فاجتمعوا ، وتآلفوا؛ فزادت قوتهم بسبب اجتماعهم.

ولم يكن ذلك بسعي أحد ، ولا بقوة غير قوة الله - عز وجل -.

والتأليف بين قلوب المؤمنين - كما يقول المفسرون - منة أخرى على الرسول ﷺ

إذ جعل أتباعه متحابين؛ وذلك أعون له على سياستهم، وأرجى لاجتناء النفع بهم؛ بحيث يكونون على قلب رجل واحد.

وقد كان العرب يُفَضِّلون الجيشَ المؤلَّفَ من قبيلة واحدة؛ لأن ذلك أبعد عن حصول النزاع بينهم.

وكما أن ذلك مِنَّةٌ من الله على رسول ﷺ فهو كذلك مِنَّةٌ على المؤمنين؛ إذ نَزَعَ من قلوبهم الأحقاد والإحْن التي كانت دأب الناس في الجاهلية؛ فكانت سببَ التقاتل بين القبائل بعضها مع بعض، وبين بطون القبيلة الواحدة، وأقوالهم في ذلك كثيرة جداً، ومنها قول أحدهم:

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

وقول الفضل بن العباس اللهبي:

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

الله يعلم أننا لا نحبكم — ولا نلومكم — ولا ألا تحبوننا

فلما آمنوا بمحمد ﷺ انقلبت البغضاء بينهم مودة، كما قال - تعالى -:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ آل عمران: ١٠٣.

وما كان ذلك التآلف والتحاب - كما يقول ابن عاشور - إلا بتقدير الله - تعالى - فإنه لم يحصل من قبل بوشائج الأنساب، ولا بدعوات ذوي الألباب.

ولذلك قال - تعالى -:

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال: ٦٣.

أي لو حاولت تأليفهم ببذل المال العظيم، ولو كان ذلك جميع ما في الأرض

من ذهب وفضة وغيرهما - ما استطعت إلى ذلك سبيلاً؛ بسبب ما بينهم من  
الثُّفرة العظيمة، والفرقة الشديدة، وبسبب كفرهم، وقسوة قلوبهم، واختلاف  
آرائهم.

ولكن الله أَلَفَ بينهم بعزته وقدرته؛ فهو - عز وجل - قويُّ القدرة؛ فلا يعجزه  
شيء، مُحْكِمُ التكوين؛ فيجعل المتعذر كالأمر المسنون المألوف؛ فكان ذلك  
التأليف بينهم آيةً من آيات هذا الدين.

فهذا سر من أسرار تلك الآية العظيمة يتبين من خلاله عِظَمُ شأن تألف  
القلوب، وأَثَرُهُ في ترابط المسلمين وسعادتهم، وعِزَّتِهِم، وهيبَتِهِم، وتقوية  
أصرتهم.

اللهم أَلَفْ بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا.  
وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وآله وصحبه.

## ٢٨- ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد :  
 فإن العزة خصلة شريفة ، وخلة حميدة ، وخلق رفيع ، وأدب سام ، تعشقها  
 قلوب الكرام ، وتهفو إلى اكتسابها النفوس الكبار .  
 وإن الإسلام لدين العزة والكرامة ، ودين السمو والارتفاع ، ودين الجد  
 والاجتهاد ، فليس دين ذلة ومسكنة ، ولا دين كسل وخمول ودعة .  
 والحديث ههنا سيدور حول قوله - تعالى - : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .  
 فهذه الآية جزء من قوله - تعالى - في سورة المنافقون : ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا  
 إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ  
 الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)﴾ .

والمعنى : إذ كان الأعزُّ يُخرجُ الأذلَّ فإن المؤمنين هم الفريقُ الأعزُّ ، لا كما  
 يزعم كبير المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول أنه هو وإخوانه المنافقين هم  
 الأعززون ، وأن رسول الله ﷺ وأصحابه هم الأذلون ، ليس الأمر كذلك ؛  
 فالمؤمنون هم الأعزة ، وعزتهم بكون الرسول ﷺ فيهم ، وبتأييد الله لرسوله ﷺ  
 وأوليائه ؛ لأن عزة الله هي العزة الحق المطلق ، وعزة غيره ناقصة ؛ فلا عجب أن  
 أولياء الله هم الذين لا يُقهرُونَ إذا أراد الله نصرهم ، ووعدهم به .

وإعادة اللام في قوله : ﴿وَلِرَسُولِهِ﴾ مع أن حرف العطف مُغْنٍ عنها لتأكيد  
 عزة الرسول ﷺ وأنها بسبب عزة الله ووعد إياه ، وإعادة اللام - أيضاً - في  
 قوله : ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ للتأكيد - أيضاً - إذ قد تخفى عزُّهم وأكثرهم في حال قلة

وحاجة - كما يقول ابن عاشور رحمه الله - .

ففي هذه الآية العظيمة بيان لشيء من معاني العزة، وكيف أنها تستمد من الله وحده لا شريك له؛ فما أحوجنا، وما أحوج أمتنا إلى هذا الخلق العظيم، الذي أرشدنا إليه ديتنا، وحشنا على التحلي به، ووجهنا إلى اكتسابه، وبين لنا جميع السبل الموصلة إليه.

ومن مظاهر تربية الإسلام للمسلمين على هذا الخلق، أن وجههم إلى أفراد الله بالمسألة دقت أو جَلَّتْ، كثرت أو قلت.

ومن ذلك توجيه المسلمين إلى الكسب المباح، عن طريق الكدح والعمل، والمشي في مناكب الأرض، حتى يُعِفَّ الإنسان نفسه، ويستغني عن غيره. كما وجههم في المقابل إلى أن يترفعوا عن مسألة الناس، ونفّرهم من ذلك الخلق الذميم إلا من كان مضطراً أو متحملاً حمالةً، أو من أصابته جائحة، أو فاقة، أو نحو ذلك.

كما أرشدهم إلى أن اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى؛ فَمَنَعَ القادرَ على الكسب من بسط كفه؛ للاستجداء إذا كان في استجدائه إراقةً لماء وجهه.

ثم إن الشريعة أرشدت المسلم إذا أخذ المال أن يأخذه بسخاوة نفس؛ ليبارك الله له فيه، وألا يأخذه بإسرافٍ، وهلع، وتعرضٍ، وذلةٍ، وإشراف.

وإذا اتصف المرء بعزة النفس وفُرت كرامته، وارتفع رأسه، وسلم من ألم الهوان، وتحرر من رق الأهواء وذل الطمع، ولم يسِرْ إلا على وفق ما يمليه عليه إيمانه، والحق الذي يحمله.

فهذا شيء من معالم العزة، وأثر الإسلام في اكتسابها.

وإليكم نبذة من النصوص الشرعية الواردة في شأن العزة.

قال النبي ﷺ لابن عباس - رضي الله عنهما -: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا

استعنت فاستعن بالله» رواه أحمد والترمذي، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

وقال ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم أحبلًا، فيأخذ حُزْمَةً من حطب؛ فيكفَّ الله به

وجهه - خيرٌ من أن يسألَ الناسَ أعطي أو منع» رواه البخاري ومسلم.

وقال - عليه الصلاة والسلام -: «من يستغن يغنيه الله، ومن يستعفف يُعِفِّهِ

الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحدٌ عطاءً أو خيراً أوسع من الصبر»

رواه البخاري ومسلم.

وفيها - أيضاً - عن النبي ﷺ قال: «ما يزال الرجلُ يسألُ الناسَ حتى يأتيَ

يومَ القيامة، وليس في وجهه مُزْعَةٌ لحم».

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: «من سأل الناس، تكثراً فإنما يسأل

جمراً؛ فَلْيَسْتَقِلْ أو ليستكثر».

بل لقد أوصى - عليه الصلاة والسلام - نفراً من أصحابه ألا يسألوا الناس

شيئاً؛ ففي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي ؓ أن لما بايع النبي ﷺ

مع طائفة من أصحابه قالوا: فعلام نبايعك؟

قال: «على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس،

وتطيعوا...» وأسر كلمة خفية: «ولا تسألوا الناس شيئاً».

قال عوف: فلقد رأيت بعض أولئك نفر يسقط سوطاً أحدهم؛ فما يسأل

أحداً يناوله إياه.

وكما تظافرت نصوصُ الشرع في الثناء على خلق العزة، والحثُّ عليه،



فكذلك تابعت وصايا العلماء والحكماء.

قال وهب بن منبه رحمهما الله لرجل يأتي الملوك: «ويحك تأتي من يغلق عنك بابَه، ويظهر لك فقرَه، ويواري عنك غناه، وتدعُ من يفتح لك بابَه بالليل والنهار ويظهر لك غناه، ويقول: «ادعني استجب لك»!.

وقال طاووسٌ -لعطاء- رحمهما الله: «إياك أن تطلبَ حوائجك إلى من أغلق دونك بابَه، ويجعل دونها حُجَّابَه، وعليك بمن بابَه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرُك أن تدعوَه، ووعدك بأن يجيبك».

وقيل لأبي حازم رحمهما الله: «ما مالك؟ قال: ثقتي بالله، وإياسي من الناس». هذه هي العزة، وها نحن ننفياً ظلال دين يأمر بالعزة، ويدعو إلى العزة، أفلا نستشعر هذا المعنى؟ ونذكر أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين؛ فنلتمس العزة من مظانها، ونسعى لإدراكها، والاتصاف بها؛ فيكونَ لنا عزٌّ وسرورٌ وذكرٌ جميلٌ في العاجل، وأجرٌ وذخرٌ وعطاءٌ غيرُ مجذوذٍ في الآجل؟

اللهم أعزنا بطاعتك، ولا تذلنا بمعصيتك، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

## ٢٩- ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾

الحمد لله غافر الذنوب، وساتر العيوب، والصلاة والسلام على إمام  
المستغفرين، وقدوة الناس أجمعين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم  
بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فلقد أمرنا الله - عز وجل - بالاستغفار، وندبنا إلى ذلك في آيات كثيرة كما  
سيأتي بيان ذلك.

وهذه كلمات في الاستغفار تبين مفهومه، وأهميته، وأحوال الناس فيه،  
وفضائله، وصيغته.

## أولاً: مفهوم الاستغفار

الاستغفار: طلبُ المغفرة، وهي سترُ الذنوب، والعفوُ عنها، ووقايةُ شرِّها.

## ثانياً: أهمية الاستغفار

الاستغفارُ من أجلِّ القربات، وأنفع الطاعات، وأعظم موانع إنفاذ الوعيد.  
والاستغفارُ ختامُ الأعمال الصالحة؛ فيختم به الصلاة، وقيامُ الليل،  
والصيام، والحج، ويختم به المجالس؛ فإن كانت ذكراً كان كالطابع عليها، وإن  
كانت لغواً كان كفارةً لها.

ولما وفى نبينا ﷺ تبليغَ الرسالة، والجهادَ في سبيل الله، وأقرَّ الله عينه بعز  
الإسلام، وظهور المسلمين، ودخول الناس في دين الله أفواجا - أمره الله  
بالاستغفار؛ فكان التبليغُ والجهادُ عبادةً قد أكملها، وأداها، فشرعَ له الاستغفار  
عقبيها.

وبالجملة فهذه حال العبد مع ربه في جميع أحواله؛ فهو يعلم أنه لا يوفي هذا المقام حقّه؛ فهو أبداً يستغفر عَقِبَ كُلِّ عمل صالح، فكلُّ أحدٍ محتاج إلى مغفرة الله ورحمته، ولا سبيل إلى النجاة بدون ذلك.

### ثالثاً: أحوال الناس فيه

مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَعْرِفُ مِنْ مَوْجِبَاتِ سَخَطِ اللَّهِ، وَأَسْبَابِ عِقَابِهِ إِلَّا الْمَعَاصِيَ الَّتِي شَدَّدَتِ الشَّرِيعَةُ فِي النِّهْيِ عَنْهَا؛ فَإِذَا تَابُوا مِنْ عَمَلٍ سَيِّئٍ فَإِنَّمَا يَتُوبُونَ مِنْهَا؛ فَهَذِهِ حَالُ عَامَةِ الْمُؤْمِنِينَ.

أما خاصة المؤمنين فحالهم أكمل وأتم؛ فهم يعرفون أن لكل عمل سيئ لوثه في النفس تُبْعَدُ بها عن الكمال، ويرون أن لكل عمل صالح أثراً في النفس يقربها من الله - عز وجل -.

والتقصير في الصالحات يعدُّ عند هؤلاء من الذنوب التي تهبط بالنفس، وتبعدها عن الله؛ فالنفس إذا قصّرت فيها تتوب؛ وإذا استمرت لم تأمن من النقائص والعيوب.

ويختلف اتهام هؤلاء لأنفسهم باختلاف علمهم بصفات النفس، وما يعرض لها من الآفات في سيرها، وعلمهم بكمال الله، ومعنى القرب منه، واستحقاق رضوانه.

ولهذا ترى هؤلاء الكمل يسارعون في الخيرات، ويبادرون إلى التوبة والاستغفار؛ لشعورهم بالنقص في العمل والتقصير في حق رب الأرض والسموات.

فلهؤلاء الكمل شأن مع الاستغفار؛ فهم يمثلون أمر ربهم بالاستغفار - كما

مر - فيختمون مجالسهم بكفارة المجلس «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

ويمثلون أمر ربهم بختم صلاتهم بالليل بالاستغفار ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الذاريات: ١٨.

وإذا انتهوا من الصلاة المفروضة «استغفروا ثلاثاً».

وإذا أفاضوا في حجهم من حيث أفاض الناس استغفروا الله - عز وجل - كما قال - سبحانه -: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ثم إنهم يختمون شهر رمضان بالاستغفار؛ فهو يكمل الصيام، ويرقع ما تحرق منه باللغو، والرفث؛ فقد جاء في الحديث المرفوع عن أبي هريرة رضي الله عنه في فضل شهر رمضان «ويغفر فيه إلا لمن أبى».

قالوا: يا أبا هريرة ومن يأبى؟ قال: «يأبى أن يستغفر الله».

قال ابن رجب رحمه الله: «ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «الغيبة تحرق الصيام، والاستغفار يرقعه؛ فمن استطاع منكم أن يجيء بصوم مرقع فليفعل» وعن ابن المنذر رحمه الله قال: «معنى ذلك: أن الصيام جنة من النار ما لم يخرقها، والكلام السيئ يخرق هذه الجنة، والاستغفار يرقع ما تحرق منها».

«وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الأمصار يأمرهم بختم شهر رمضان بالاستغفار، وصدقة الفطر».

#### رابعاً: فضائل الاستغفار

للاستغفار فضائل جمّة، وأسرار بديعة، وبركات متنوعة، فمن ذلك - زيادة

على ما مضى- أنه طاعة لله، وأنه سببٌ لمغفرة الذنوب، ورفعة الدرجات، ونزول الأمطار، والإمداد بالأموال والبنين ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (١٢)﴾ نوح.

والاستغفار سببٌ في زيادة القوة والمتاع الحسن، ودفع البلاء، وحصول الرحمة.

قال الله -تعالى-: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ هود: ٣.

وقال على لسان هود -عليه السلام-: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ هود: ٥٢.

وقال -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الأنفال: ٣٣.

وقال -عز وجل-: ﴿لَوْ لَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ النمل: ٤٦.

قال لقمان -عليه السلام- لابنه: «يا بني عود لسائك الاستغفار، فإن الله ساعات لا يرد فيهن سائلاً».

وقالت عائشة -رضي الله عنها-: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً».

وقال أبو المنهال رحمه الله: «ما جاور عبداً في قبره من جارٍ أحب إليه من استغفارٍ كثير».

وقال الحسن رحمه الله: «أكثرُوا من الاستغفار؛ فإنكم لا تدرون متى تنزل

الرحمة»

وقال قتادة رحمته : «إن هذا القرآن يدلُّكم على دلائلكم ودوائكم؛ فأما دواؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار».

وقال بعضهم : «من أهمته ذنوبه أكثر لها من الاستغفار».

ومما يدل على عظم شأن الاستغفار أن الله - عز وجل - جمع بينه وبين التوحيد كما في قوله - تبارك وتعالى - : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ محمد: ١٩.

وفي بعض الآثار أن إبليس قال : «أهلك الناس بالذنوب، وأهلكوني بـ: لا إله إلا الله، والاستغفار».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته : «شهادة التوحيد تفتح باب الخير، والاستغفار يغلق باب الشر».

### خامساً: صيغ الاستغفار

للاستغفار صيغ عديدة، وأفضلها أن يبدأ العبد بالشاء على ربه، ثم يثني بالاعتراف بذنبه، ثم يسأل الله المغفرة كما في حديث شداد بن أوس في صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي؛ فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

ومن صيغ الاستغفار : «استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه».

قال -عليه الصلاة والسلام-: «من قاله غُفر له وإن كان فر من الزحف»  
 رواه أبو داود، والترمذي، وجود إسناده المنذري في الترغيب والترهيب.  
 وفي كتاب عمل اليوم والليلة للنسائي عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: قلت يا  
 رسول الله! كيف نستغفر؟ قال: «قل: اللهم اغفر لنا وارحمنا وتب علينا؛ إنك  
 أنت التواب الرحيم».

وفيه -أيضا- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما رأيت أحداً أكثر من أن يقول:  
 أستغفر الله وأتوب إليه من رسول الله ﷺ».

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: «إن كنا لنعدُّ لرسول الله ﷺ في  
 المجلس الواحد مائة مرة يقول: «رب اغفر لي وتب علي؛ إنك أنت التواب  
 الرحيم».

رواه أحمد، وأبو داود، والبخاري في الأدب المفرد، والترمذي، وابن  
 ماجه، وصححه ابن حبان.

ومن أخصر الصيغ وأشهرها: «أستغفر الله»، «ورب اغفر لي».  
 هذا هو الاستغفار، وهذه أحوال الناس فيه، وهذه فضائله، وتلك صيغته،  
 فما أحرانا أن تلهج ألسنتنا بالاستغفار، وما أجمل أن يكون الاستغفار لنا خير  
 دثار فيما نستقبله من أيام.

## ٣٠- ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد :  
فقد ختم الله آيات الصيام من سورة البقرة بقوله - عز وجل - : ﴿وَلَعَلَّكُمْ  
تَشْكُرُونَ﴾ البقرة: ١٨٥ .

أي لعلكم تشكرون الله أن بلغكم شهر رمضان ، وأعانكم على إتمامه .  
وفي هذا إرشادٌ إلى منزلة الشكر ، وحثٌ للعباد على ملازمته .  
فالشكر من أجل العبوديات ، وأعلى المنازل ؛ إذ هو نصف الإيمان ، فالإيمان  
صبر وشكر .

وقد أمر الله بالشكر ، ونهى عن ضده ، وأثنى على أهل الشكر ، ووصف به  
خاصة خلقه ، ووعد أهله بأحسن جزائه ، وجعله سبباً للمزيد من فضله ،  
وحارساً وحافظاً لنعمته ، وأخبر - عز وجل - أن أهل الشكر هم المنتفعون بآياته .  
والشكر قيدُ النعم الموجودة ، وصيدُ النعم المفقودة .

وحقيقة الشكر هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافاً ، وعلى  
قلبه شهوداً ومحبة ، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة .

والمؤمن حقاً هو مَنْ يلازم الشكر في شتى أحواله ؛ فإذا نزل به ما يحب شكر  
الله عليه ؛ إذ هو المنعمُ المتفضل ، وإذا نزل به ما يكره شكر الله على ما قدره عليه ؛  
كظماً للغیظ ، وسترًا للشكوى ، ورعاية للأدب ، وسلوكاً لمسلك العلم .

فإن العلم بالله والأدب معه يأمران بشكر الله على المحاب والمكاره ، وإن كان  
الشكر على المكاره أشق وأصعب .

اللهم اجعلنا من الشاكرين الصابرين ، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد .



